# تفسير
# سورة الضحى

حُقوق الطَّبْعِ محفُوظَة للمؤَلِّف

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014م

المركز الإسلامي للدراسات

# تفسير
# سورة الضحى

السيد جعفر مرتضى العاملي

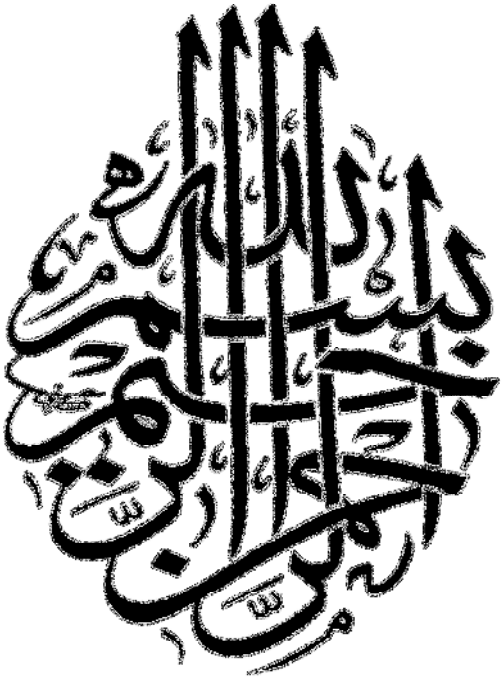

**تقديم:**

**بسم الله الرحمن الرحيم:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين. واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد.. فإن هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم هو تفسير سورة: «الضحى» وقبل أن أشرع في المقصود أحب في هذا التقديم لفت النظر إلى ما يلي:

روي عن الإمام الرضا، عن أبيه «صلوات الله عليهما»: أن رجلاً سأل أبا عبد الله «صلوات الله عليه»:

ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟!

فقال: لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله [ينزله] لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة[1].

وعن الإمام الحسين «صلوات الله وسلامه عليه»: كتاب الله على أربعة

---

(1) عيون أخبار الرضا ج2 ص87 وبحار الأنوار ج89 ص15 والأمالي للطوسي ج2 ص193.

أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف والحقايق.

فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء[1].

وروي عن الإمام الصادق «عليه السلام» مثله[2].

وفي كلام مروي عن الإمام الصادق «عليه السلام»، عن آبائه، عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» ما يلي: «فظاهره حكمة، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق. له نجوم وعلى نجومه نجوم. لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه إلخ..»[3].

وراجع الخطبة رقم 196 في نهج البلاغة، فإنها بالغة الأهمية في هذا المجال، وباب فضل القرآن وإعجازه في كتاب بحار الأنوار الشريف ج89.

وهذه النصوص وسواها ـ وهو كثير ـ يوضح: أن أحداً سوى الأنبياء والأوصياء «صلوات الله عليهم» لا يستطيع أن يدعي أنه قادر على نيل معاني القرآن. ومهما علا شأنه ورسخت قدمه في العلوم والمعارف، لاسيما وأن أحداً لا يستطيع أن يدعي أنه في مأمن من الخطأ، أو الغفلة في كثير من

---

(1) بحار الأنوار ج89 ص20 عن جامع الأخبار ص48.

(2) بحار الأنوار ج75 ص278 وج92 ص103 عن الدرر الباهرة، وعن أعلام الدين، وكتاب الأربعين.

(3) تفسير العياشي ج1 ص2 وبحار الأنوار ج89 ص177 وراجع: نوادر الراوندي ص22.

المعاني وحيثياتها، وسائر ما يرتبط بها من قريب، أو من بعيد.

من أجل ذلك، فإنني أرى نفسي مرتاح الضمير إذا قلت: إن هذا الجهد المتواضع واليسير، الذي هو مجموعة دروس ألقيت على بعض الأخوة، ثم استخرجت من أشرطة التسجيل، وجرت عليها بعض الإصلاحات، ونالها بعض التقليم والتطعيم..

نعم، إن هذا الجهد قد لا يستطيع أن يصل حتى إلى أدنى مراتب الفهم للمعاني القرآنية، وهي مرتبة العبارة التي هي للعوام، فقد تجسد أمام أعيننا عجزنا عن بلوغ هذه المرتبة.. فهل يمكن بعد هذا ادعاء الإقتراب، فضلاً عن ملامسة، أية مرتبة أخرى تأتي بعدها؟!

وحسب المرء أن يعرف نفسه بالنقص والعجز، والضآلة والقصور، فإن هذه المعرفة هي من المآثر والمفاخر، وليست من المعايب والمثالب.. وهي معرفة من شأنها أن تبعد من يصل إليها ـ ولو بمقدارٍ ما ـ عن الغرور، وعن الإنتفاخات الكاذبة التي قد تسوقه إليها الألقاب التي يغدقها عليه الآخرون بغير حساب..

عصمنا الله من شر هذه التسويلات الشيطانية، التي تتسلل إلى النفس الأمارة، فتوقظها من سباتها، وتحفزها للتمرد، مستعينة بشياطين الأهواء على إفساد دنياه وآخرته، وتكدر على الإنسان صفاء روحه، وتلوث طهر قلبه.

وآخر ما أحب تذكير القارئ الكريم به، هو أن يتحفني بملاحظاته، فربما أمكن الاستفادة منها ـ كلاً أو بعضاً ـ في تصحيح خطأ، أو في إيضاح

فكرة تحتاج إلى إيضاح..

بالإضافة إلى رجائي الأكيد منه أن لا ينساني من صالح أدعيته، فإني بأمس الحاجة إلى ذلك..

عصمنا الله من الزلل والخطل في الفكر، والقول والعمل.

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله، والأئمة الطاهرين من آله..

**حرر بتاريخ 22/ 8/ 1434هـ.ق. 2/ 7/ 2013م.ش.**

**بيروت**

**جعفر مرتضى الحسيني العاملي**

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى

وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[آيات سورة الضحى].

# الفصل الأول:

## ممهدات: قسم الله بمخلوقاته..

**بداية:**

تبدأ هذه السورة المباركة ـ سورة الضحى ـ بـ ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، وهي أعظم آية في القرآن وقد تكلمنا حول بعض ما ترمي إليه في تفسير سورة الفاتحة، فنحن نحيل القارئ الكريم إلى هناك.

ثم بالقسم: ﴿**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾. ولهذا القَسم نظائر كثيرة في القرآن الكريم، مثل: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾[1].

---

(1) الآيات 1 ـ 7 من سورة الشمس.

(2) الآيات 1 ـ 4 من سورة الفجر.

(3) الآية 1 من سورة العصر.

(4) الآيات 1 ـ 3 من سورة التين.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[2].

وغير ذلك كثير..

وينبغي التكلم في هذه الأقسام (جمع قَسَمْ) من عدة جهات، نجملها كما يلي:

**ما هو القسم؟!:**

قال العلامة الطباطبائي «رحمه الله» في بيان معنى القسم: إن القسم هو تقييد الخبر أو الإنشاء بشيء ذي شرافةٍ وكرامةٍ من حيث إنه شريف أو كريم، فتبطل شرافته أو كرامته ببطلان النسبة الكلامية، فإن كان خبراً ببطلان صدقه، وإن كان إنشاءً أمراً أو نهياً، فبعدم امتثال التكليف[3]..

**فالقسم**: هو أن تجعل بقاء أو حياة، أو سلامة أمر، أو اعتقادك به، أو غير ذلك من جهات حفظه وصونه، أو أية جهة تعز عليك فيه ـ تجعله ـ معلقاً، ومرهوناً ومرتبطاً بشيء آخر.. بمعنى: أنك تعطي الرضا بتعريض ذلك المرهون للبوار والضياع لو لم تكن صادقاً في قولك، مثلاً.

فمثلاً قد تقسم لإنسان بالله، أو بالقرآن على أن فلاناً قد جاء من السفر. أي أنك جعلت علاقتك بالله، أو القرآن مرهونة بصدقك في خبرك هذا. أو قد تقسم على إنسان بولده، أو بأبيه أن يفعل لك الشيء الفلاني.. فكأنك تجعل حفظه ولده، أو سلامته مثلاً، مقابل هذا الفعل، ومعلقاً عليه، ومرهوناً به.

---

(1) الآية 1 من سورة ق.

(2) الآيتان 1 و 2 من سورة الليل.

(3) تفسير الميزان ج1 ص224.

فإذا كان هذا الأمر يعز عليه، فإنك تتوقع أن يندفع لإجابة طلبك.

**الله يقسم بمخلوقاته:**

وقد يكون المقسم به أعظم من الذي ينشئ القسم، كمن يقسم بالله مثلاً، وقد ينعكس الأمر، فترى أن الله تعالى يقسم بمخلوقاته، كالشمس، والقمر، والليل، والنهار، والفجر، والضحى، والعصر، وغير ذلك..

وقد يكون المبرر لجعله مورداً للقسم أنه عزيز، أو حبيب، ككونه ولداً، أو أباً، أو رجلاً فاضلاً مطيعاً لله تعالى.

أو لأن له أهمية وأثراً كبيراً في البناء العام للكون، كالشمس والقمر، والليل والنهار. لأن المقسِم ـ بكسر السين ـ أو المقسَم ـ بفتحها ـ عليه يريد الطرف الآخر له الحفظ والسلامة.

وكما قد يكون المقصود بالقسم هو الإثبات أو النفي، قد يكون المقصود به تحريض الطرف الآخر على فعل شيء بعينه.

وقد يكون المقصود هو لفت الأنظار إلى ما لذلك الشيء من أثر عظيم في الحياة: في بقائها، أو في انتظامها، أو في تيسير الاستفادة منها.. أو نحو ذلك.. بحيث يكون التفريط به، أو التخلي عنه غير ممكن، أو في غاية الخطورة.

ومن الشواهد على ذلك: قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾[1]، فقوله: ﴿**لَوْ تَعْلَمُونَ**﴾ يشير إلى أنكم لا تعلمون ذلك، ونحب لكم أن تعلموه وتعقلوه.

(1) الآية 75 من سورة الواقعة.

**القسم فقط بالذات الإلهية:**

وقد يسأل البعض عن السبب في أن النبي «صلى الله عليه وآله» والأئمة الطاهرون «عليهم السلام» لم يقسموا بالشمس والقمر، والليل والنهار، والضحى وغير ذلك من مخلوقاته تعالى.

وهل يجوز لنا نحن أن نقسم بشيء منها، كالقسم على الله بحق محمد، وعلي مثلاً، كما ورد في الدعاء؟!

**ونجيب:**

بأن قسم الله بمخلوقاته، لا يحمل معه أية شائبة أو توهم، أو شبهة ترتبط بالعبادة والشرك. ولكن أن يقسم المخلوق بالمخلوق، ولاسيما مع وجود سوابق خرجت فيها فئات كثيرة عن الحدود المقبولة والمعقولة في التعلق ببعض المخلوقات إلى حد العبادة والتأليه..

فكان لا بد من رسم حدود ووضع قيود قادرة على منع عودة هذه العاهة، التي تعني سقوطاً خطيراً في مستوى الوعي وانتكاساً في المسار. فكان الحكم الشرعي يقضي بأن يكون القسم الذي يجب الوفاء به، ويرتب أحكاماً ومسؤوليات ملزمة هو القسم بالذات الإلهية..

وما عدا ذلك، فإنه يبقى في دائرة التعبير عن العلاقة والمكانة التي يحتلها المقسم به لدى من يبادر إلى جعله مورداً لقسمه، وقد أبقى الشارع هذه العلاقة في دائرة الرصد، والمساءلة والحساب الدقيق بين يدي الله تعالى يوم القيامة. أو إذا اختار الناس أنفسهم المجاهرة بما يعتبره الشارع خروجاً عن دائرة الاعتدال إلى أجواء الغلو، والعبادة التي لها تبعاتها البالغة

الخطورة، وعقوباتها التي لا خلاص ولا مناص منها.

**الحضور الدائم، والإلف، والعادة:**

وحيث إن من أسباب الغفلة عن الأسرار والدقائق، وغوامض الحقائق، هو شدة الالتصاق بالأشياء، والقرب منها، والإلف الشديد لها، لأجل طول العشرة، وكثرة المراودة والمشاهدة.. فقد كان الإنسان العربي وغيره دائم التواجد مع ناقته، أو فرسه، أو بقرته، أو شاته، أو كلبه، أو هرته، يراها ويسمع أصواتها، ويرى حالاتها ليل نهار..

وهو يرى الجبل بالقرب منه، وقد يصعد عليه، وينزل منه صباح مساء، ويرى الشمس كل يوم، ويرى القمر أو النجوم كل ليلة، ويرى السماء والأرض باستمرار، حتى أصبح لا يشعر بوجود هذه الأشياء، لشدة قربها منه، ويمر به الفجر والعصر، ولا يكاد يشعر بهما، وكذلك الضحى والليل والنهار، بل هو قد يستطيل بقاء هذه الساعات، ويتمنى سرعة انقضائها. فلأجل ذلك يَتَبَلَّد حسُّه تجاهها، ولا يكاد يلتفت إليها.

وقد يكون من أسباب الغفلة بعض التصورات الخاطئة عنها أيضاً. فقد تقتحم عينك إنساناً لصغر جثته، أو لسواد لونه، أو لرثاثة ثوبه، أو لدمامة وجهه، أو لصوته النشاز، أو لغير ذلك من أمور.

**فيأتي القسم من رب العزة والجلال ليقول لك**: إن ما أنت غافل عنه فيه من الأسرار والدقائق ما يبهر العقول، ويدهش الألباب.. كما صرحت به الآية الكريمة: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ**

﴿رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

وتقول الآية الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2].

فإنهما مع ما لهما من نظائر تدعوان هذا الإنسان إلى أن يشمر عن ساعد الجد، ويباشر التأمل والتدبر، والتحقيق والتدقيق في كل شيء.. ليكشف الغوامض، ويَسْتكنه الأسرار، التي تعينه على الاستفادة مما خلقه الله تعالى له في كل هذا الكون الفسيح، ومن كل ما في السماوات والأرض في بناء صرح الحياة الشامخ، وتسلق مراقي المجد العتيد الباذخ، على أسس علمية صحيحة، وسليمة، وقويمة، توصل كل شيء إلى كماله المنشود، بكل أمانة وسداد، وعلى أساس من هدى ورشاد..

وليكن الرائد، والمرشد، والقائد له هو الهدي الإلهي، بدءاً من هذه الأقسام المتكررة منه تعالى بمخلوقاته، وهو الصانع القدير، والبصير الخبير، والواقف على الخفيات، والذي يمد لهذا الكائن يد اللطف والعون، لكي يأخذ بها إلى النجاح والفلاح في مسير إلى مصير ضمن الخطط والأهداف السامية.

إنه تعالى يريد للإنسان أن يكون فطناً لبيباً، مفكراً أريباً، مستفيداً من كل ما يمكن أن يكون مفيداً، ولا يريده ساذجاً ولا غافلاً.. ولاسيما عن دقائق الأمور، وعن كل ما هو أساسي وحساس وخطير..

---

(1) الآيات 17 ـ 20 من سورة الغاشية.

(2) الآية 53 من سورة فصلت.

إنه لا يريده أن يستهين بالصغير لصغره، وأن يستنكف عن التفكير بالشيء لأجل سوء مظهره، أو ضآلة حجمه.. فقد يجد في المَخبر ـ بفتح الميم ـ الخير العظيم، والنفع العميم.

**ما بعوضة فما فوقها:**

وقد ضرب الله تعالى الأمثال لهذا الإنسان، ليفهمه هذه الحقيقة، ويسوقه في هذا الاتجاه، فلاحظ مثلاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**..﴾[1].

فإننا إذا قايسنا بين البعوضة، وهي مخلوق ضعيف الجسم، ضئيل الحجم، وبين الفيل، المخلوق القوي والضخم، فسنجد عجباً، فإن الرواية عن الإمام الصادق «عليه السلام» تقول لنا: «ما خلق الله عز وجل خلقاً أصغر من البعوض، والجرجس أصغر من البعوض. والذي نسميه نحن الوَلَعَ أصغر من الجرجس. وما في الفيل شيء إلا وفيه مثله. وفضَّل على الفيل بالجناحين»[2].

**قال المجلسي «رحمه الله»**: قال الجوهري: الجرجس لغة في القرقس. وهو البعوض الصغار[3].

---

(1) الآية 26 من سورة البقرة.

(2) الكافي ج8 ص248 وبحار الأنوار ج61 ص319 والتوحيد للصدوق ص283.

(3) بحار الأنوار ج61 ص319.

**والظاهر**: أن مراده بقوله: ما خلق الله خلقاً اصغر من البعوض. هو الخلق الذي يرى عادةً بالعين المجردة.

وظهر من قول الجوهري أيضاً أن البعوض أنواع.

غير أن ما لفت نظرنا هنا هو كلمة: «نحن» في قوله «عليه السلام»: «والذي نسميه نحن الولع». فهل يريد «عليه السلام» بكلمة نحن: أهل المدينة؟! أو قريشاً، أو يريد أن ثمة نوعاً من البعوض يعرفه أهل البيت «عليهم السلام» دون سواهم هو أصغر من الجرجس ـ بكسر الجيم ـ؟! كل ذلك محتمل.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن كلمة «ما» في قوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**..﴾. ـ كما يبدو لنا ـ: قد أشربت معنى التعليل، فكأنه تعالى قال: ضرب الله مثلاً هو أنه قد توجد بعوضة متناهية في الصغر، بل هناك ما هو أصغر منها يكون مثلاً يثبت ما نقول..

فدلنا تعالى بكلمة «ما» أن الأحجام في أنواع البعوض تختلف وتتفاوت.

ثم ترقى في التأكيد على وجود كائن حي يفوق في صغره حجم أصغر أنواع البعوض أيضاً. وأنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً بذلك المخلوق، فإنه هو الآخر كاف في التدليل على قدرته وحكمته، وعلمه، وعظمته تبارك وتعالى.

**فما تقدم يعطينا**: أن الأحجام، والألوان، والأشكال، ليست هي المعيار، فلا يجوز لنا أن نستهين بالصغير لصغره. كيف.. وقد قال تعالى فيما يرتبط بالحساب والأعمال: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ**

**مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[1].

ويقول لقمان لابنه: **﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾**[2].

وعن دقة الحساب والاستقصاء فيه يقول تعالى: **﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا * وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**[3].

فهذه الحسنة الصغيرة التي هي بمثقال الذرة قد تنجيك، وتدخلك الجنة، حيث يثقل ويرجح بها ميزان الأعمال، وقد يبوء الإنسان بالخسران والبوار، ويدخل النار حين لا يجد هذه الحسنة في ميزانه، فيرجح ميزان أعماله بما تجمع فيه من مثاقيل الذرات من الشرور والآثام..

**ونحن نعلم أيضاً**: أن قطرة يسيرة من السم تقتل إنساناً، وقطرة دواء أخرى تنجيه وتحييه.

وعن المظاهر والأشكال نقول أيضاً: روي عن الإمام أمير المؤمنين «عليه السلام» أنه قال:

«رب أشعث أغبر، ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبر قسمه..»[4].

---

(1) الآيتان 7 و 8 من سورة الزلزلة.

(2) الآية 16 من سورة لقمان.

(3) الآية 47 من سورة الأنبياء.

(4) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2ص182 و 183 وج7 ص111والمستدرك للحاكم ج3 ص292 ومجمع البحرين ج2 ص514 وبحار الأنوار ج69

**وورد:** إياكم ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً، وإنها لتجتمع على المرء حتى تهلكه[1]، لا سيما وأن الاستهانة بالذنب تنقل الذنب من حالة الصغر ليصبح كبيرة من الكبائر.

وقد قال العباس بن مرداس:

**ترى الرجل النحيف فتزدريه وتحت ثيابه أسد مزير**

**ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير**

فليست القيمة في واقع الأمر، عند الله للأشكال، والمظاهر والأحجام.. بل للجوهر والمضمون. فإن قيمة الإنسان في عقله وفكره، وأخلاقه، ومزاياه الإنسانية، وفي مشاعره وإيمانه، والتزامه بشرع الله.

**باقة رائعة:**

ونختم الكلام حول هذه النقطة بالذات بذكر باقة من الشواهد القرآنية، هي ذات دلالات بالغة الأهمية، وهي التالية:

**1 ـ سورة هل أتى:**

إنه تعالى قد أنزل سورة كاملة هي سورة هل أتى في حق أهل البيت

---

ص81 وج 36 ص347 و 348 وكفاية الأثر ص184 والتحصين لابن فهد الحلي ص19. وراجع: القول المسدد للعسقلاني ص48 والمجازات النبوية ص299 والكامل لابن عدي ج3 ص314.

(1) راجع: إرشاد القلوب للديلمي ج1 ص33 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج15 ص313 و (الإسلامية) ج11 ص247.

«عليهم السلام».. وفيها من التعظيم والتكريم لهم «عليهم السلام»، ومن الحقائق والدقائق والإشارات والدلالات في مجالات عديدة ما يبهر العقول، وذلك بمناسبة تصدقهم «عليهم السلام» بأقراص من شعير ثلاث مرات: مرة على مسكين، ومرة على يتيم، ومرة على أسير. وذلك في غضون ثلاثة أيام صاموها «صلوات الله تعالى عليهم».

**وقد يرى الناس**: أن التصدق بقرص الشعير الذي كان سبباً في نزول سورة هل أتى هو عمل يقدر عليه فقراء الأمة، وضعافها مادياً، فإذا ترافق ذلك مع صفاء النية والإخلاص في العمل، فإن ذلك يكون من أسباب رقي من يبادر إليها إلى أعلى درجات القرب من الله..

**فدلنا الاهتمام بهذه الصدقة بقرص من شعير**: على أن الأحجام والكثرات ليست هي المعيار في القيمة عند الله تعالى.

## 2 ـ آية الولاية والتصديق بالخاتم:

وقد أنزل الله تعالى آية صريحة في اختصاص علي «عليه السلام»، بعد الله تعالى ورسوله «صلى الله عليه وآله» بأعظم مقام، وهو مقام الولاية والإمامة للبشر وعليهم إلى يوم القيامة، أنزلها حين تصدقه «عليه السلام» أثناء الصلاة وفي حال الركوع بخاتمه على فقير. منَوِّهاً في هذه الآية بهذا الفعل، جاعلاً إياه عنواناً لصاحب هذه الولاية العظمى، فقال: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1].

(1) الآية 55 من سورة المائدة.

وذلك من دون أن يشير إلى جهاد علي «عليه السلام»، ولا إلى علمه، ولا إلى تضحياته الجسام، ولا إلى سائر خصوصياته التي تفرد بها عن سائر الناس.

ولم يشر أيضاً إلى ما يتطلب شجاعة خارقة، أو إلى قوة هائلة، كنومه «عليه السلام» على فراش رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليلة الغار، ولا إلى قلعه باب خيبر، ولا إلى سائر مواقفه الكبرى في سائر أيامه.. وإن كان ذلك ثابتاً في سيرته القاطعة والصحيحة. بل أشار إلى عمل يمكن لكل أحد أن يبادر إليه ويمارسه، ولا يعتذر عنه بأنه لا يملك تلك الشجاعة، ولا تلك القدرة الخارقة. بدعوى أن الله تعالى هو الذي حرمه من ذلك.

### 3 ـ الثناء على أمير المؤمنين ×:

إنه تعالى، قد أنزل في الثناء على أمير المؤمنين «عليه السلام» آيات كثيرة، في مناسبات لا يكاد يخطر على البال أن يكون لها هذا الأثر.. فقد سجل له القرآن مثلاً صدقته بدرهم في مناجاته لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، وذم الآخرين على بخلهم وعدم مبادرتهم إلى ذلك، فقال تعالى بعد عدة آيات تحدثت عن النجوى:

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا**

**الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**[1].

وحين أنفق «عليه السلام» درهما سراً ودرهماً جهراً، ودرهماً ليلاً، ودرهماً نهاراً نزل فيه قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً..﴾**[2].

هذا في حين أن بعض الناس يدَّعي أن بعض الصحابة قد أنفقوا أموالاً طائلة، ولم ينزل في حقهم شيء من ذلك!!

وهذا يبين ما نحن بصدده، إذ قد يدَّعي أحد أنه غير قادر من الناحية المادية، لفقده هذه المقادير من الأموال، كما أنه غير قادر من الناحية البدنية على قلع باب خيبر، لكنه لا يمكنه الادعاء بعدم القدرة على التصدق بدرهم.

**4 ـ الحض على إطعام المسكين:**

وجاء في سورة الحاقة في صفات من يعذب في جهنم: **﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**[3].

وفي سورة الفجر: **﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**[4].

---

(1) الآيتان 12 و 13 من سورة المجادلة.

(2) الآية 274 من سورة البقرة.

(3) الآيتان 33 و 34 من سورة الحاقة.

(4) الآيتان 17 و 18 من سورة الفجر.

وفي سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[1].

**فقد دلَّت هذه الآيات المباركة:** على أن مجرد عدم الحض على طعام المسكين هو من دلائل كون الإنسان جهنمياً، تماماً كدلالة عدم الإيمان بالله العظيم على ذلك، كما أن هذا الأمر نفسه من دلائل التكذيب بيوم الدين أيضاً..

مع أن الناس يرون أن هذا الأمر ـ أعني الحض على طعام المسكين ـ غير ذي أهمية، ولا يرون أنفسهم مذنبين، إذا لم يفعلوا ذلك، فكيف صار هذا الأمر عِدلاً لعدم الإيمان بالله، ومن دلائل التكذيب بيوم القيامة؟! وما هو الرابط بين هذه الثلاثة؟!

وربما كان الجواب يكمن في حقيقة أن الإنسان حين يتحول بخله، وحبه للمال، وأنانيته، إلى عاهة، ويصبح إنساناً معاقاً، ويفقد المشاعر الإنسانية تجاه من أسكنه الفقر، فإنه يكون قد فقد إنسانيته من الأساس، وفقد أيضاً خصائص الشخصية الإيمانية، وأصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2]. وقد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[3]. ومن كان كذلك، فلا يتوقع منه أن يلين قلبه، ويخشع لذكر الله، مع أن الجبال الراسيات تتصدع من خشية الله..

---

(1) الآيات 1 ـ 3 من سورة الماعون.

(2) الآية 74 من سورة البقرة.

(3) الآية 22 من سورة الزمر.

ومن أصبح كذلك، فلا بد أن ينتهي به الأمر إلى العصيان، ثم إلى الطغيان، ثم التكذيب بالآخرة، وبالحساب والميزان.

**5 ـ ومن آياته:**

وآخر مثال نذكره هنا هو قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].. فقد جعل سبحانه خلق الأزواج لنا من أنفسنا، وجعل المودة والرحمة بيننا وبينها آية تستبطن آيات، ودلائل كثيرة أخرى أيضاً.

وقد جعل هذه الآية في موازاة آية خلق الإنسان من تراب.

ثم في موازاة آية خلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان.

**يضاف إلى ذلك**: جعل من هذه الآيات أيضاً: منامنا بالليل والنهار، وابتغاؤنا من فضله تعالى..

**وجعل منها**: أنه يرينا البرق خوفاً وطمعاً، وينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها.

**وجعل منها أيضاً**: أن تقوم السماء والأرض بأمره.. فراجع سورة الروم: الآيات20 ـ 25.

**ويلاحظ هنا ما يلي:**

**ألف**: أن آية خلق الأزواج قد بدأها تعالى بقوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ**﴾

---

(1) الآية 21 من سورة الروم.

وختمها بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وبدأ الحديث عن خلق السماوات والأرض بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾. وختمه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.

وبدأ الحديث عن المنام بالليل والنهار، وابتغاء الفضل من الله بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾، وختمه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

وحين ذكر البرق، وتنزيل الماء، وإحياء الأرض بدأ بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾، وختم بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

**أي أنه تعالى يريد أن يقول لنا:**

**أولاً**: إن كل آية من هذه الآيات الأربع تستبطن آيات كثيرة.

**ثانياً**: إن على من يريد أن يصل إلى تلك الآيات الكامنة فيها: أن:

يتلمسها بالوسائل المناسبة لها، أي بالفكر والتأمل، والتدبر في الآية الأولى.

ثم بالعلم والمعرفة في الآية الثانية..

ثم بالسمع في الآية الثالثة..

ثم بالعقل في الآية الرابعة..

ب: إن آية خلق الأزواج قررت أن سبب خلق الأزواج من الأنفس، هو أن يحصل السكون إليها، ربما لأن الجزء يحتاج لكي يسكن ويطمئن ويهدأ إلى انضمام جزئه الآخر إليه، لأن الناقص لا يهدأ أو لا يستقر، إلا أن ينضم إلى ما به كماله.

ج: لقد قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، ولم يقل: لتسكنوا بها. ربما ليفيد

معنى الاعتماد على الجزء الآخر والمشاركة، ولو قال: لتسكنوا بها، لأفاد: أن العنصر الفاعل والمؤثر هو هذا الجزء الحاضر أمامه في مقام الخطاب، قبل حصول الانضمام. أما الجزء الآخر فلا دور له سوى إعطاء السكينة لهذا الحاضر.

ولكنه حين قال: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، يكون قد أعطاهما معاً قسطاً من الفعل والمشاركة في التأثير في بناء الحياة، وصنع المستقبل.

د: إن التفاعل بين الشريكين في الحياة الزوجية هو الميزة الظاهرة لهما، والمهيمنة على حياتهما، وهما العنصران الأكثر حيوية ونشاطاً. وتحصل بينهما أكثر حالات المراودة، والتمازج والاختلاط، والاحتكاك، والتدخل المباشر من قِبل كل طرف في حياة الطرف الآخر، في كل شيء، وفي كل جزئية وكلية، وكبيرة وصغيرة، وفي أخص خصوصياته، وفي كل حركة وسكون، وفي كل وقت وحين.

فالحاجة تصبح ماسة جداً إلى المزيد من الضبط والهيمنة، والتصحيح، والتوضيح، والتقليم والتطعيم باستمرار..

ونحن بأدنى مراجعة منا للتشريع الإسلامي، ندرك أنه لم يترك شاردة ولا واردة، ولا كبيرة ولا صغيرة إلا وقد وضع لها ضابطة، وأخضعها لقوانينه وأحكامه.

وما من عمل يقرِّب الناس من الجنة، ويبعِّدهم عن النار إلا وقد أمرهم به، وما من عمل يقربهم من النار، ويبعدهم من الجنة إلا ونهاهم عنه[1]. حتى إنك قد تجد عشرات الأحكام التي تعنى بآداب المائدة،

(1) بحار الأنوار ج20 ص126 ومستدرك سفينة البحار ج7 ص440 وج8

وآداب الحمام، فما بالك بما عدا ذلك..

ولكننا حين نرجع إلى الحياة الزوجية الزاخرة بالحركة والحيوية، وفيها تدخل كل من الزوجين في كل تفاصيل، وجزئيات، ومفردات حياة الطرف الآخر، فإن ما نجده لها من أحكام وتشريعات ملزمة، وما وضع لها من قيود وحدود ـ تصل إلى حد الوجوب والتحريم ـ قد لا يصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة.

وما عدا ذلك، فإنه كله يدخل في نطاق التنظيمات العامة للعلاقة بين كل إنسان وإنسان، أو المؤمن والمؤمن الآخر، من دون نظر إلى كونه قريباً، أو غريباً، أو أخاً أو زوجاً أو غيره..

فكيف نفسر هذه الظاهرة؟! أو فقل كيف نفهمها؟!

**ويمكن أن يجاب**: بأن ما يهم الإسلام هو صناعة إنسانية الإنسان بالدرجة الأولى، وإن كان يريد منه أن يلتزم بكل قانون فيه مصلحة له، إنه تعالى لا يعامل الإنسان كما يعامل الحيوان، أو أي موجود آخر.. ومن خلال معنى الإنسانية هذا، والاستثمار لخصائصها في السلوك العام يتم تنظيم العلاقات، أو الالتزام بالضوابط.

**ومن الواضح**: أن الحياة الزوجية إذا أقيمت على أساسٍ قانوني صارم، وكثرت فيها الحدود والقيود، فإنها تصبح قاسية ومريرة، تستبطن المطالبة والإلزام، والجبر والقهر، والجفاف في العاطفة وفي المشاعر.

وبَدَل أن يسود فيها الحنان، والرضا والحب، والعطف والإيثار،

---

ص331 و 493 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج14 ص233.

والعطاء، والانصهار، والتمازج، تسود فيها الأنانية والاستئثار، والشعور بالحدود والفواصل، وتتسم بالتسلط والعنفوان والعنجهية تارة، والإحباط والفشل، والخيبة تارة أخرى.

**إنه تعالى يريد أن يقيم الحياة الزوجية على أساسين، هما:**

**1ـ** الرحمة

**2ـ** المودة.

فالرحمة الناتجة عن رؤية العجز، والنقص، والحاجة، تحدث انفعالاً مفعماً بالحنان والرقة، يدعو صاحبه إلى المبادرة للمعونة، وبذل الجهد لرفع ذلك العجز، وتكميل النقص، وسد الحاجة..

فإذا بذل وضحى بماله أو بجهده، وعرقه، فإنه سيشعر أن قسطاً من كيانه وعرقه وجهده قد أصبح لدى الطرف الآخر، ويتنامى لديه الشعور بنوع من التلاقي، والتمازج، الذي ينشئ علاقة وارتباطاً روحياً لا شعورياً، وسيتعاظم، ويستقر ويترسخ بالنفس بنحو أعمق من معنى الرحمة التي تكون في البداية مجرد انفعال مرهون برؤية العجز والنقص..

فإذا استقر هذا المعنى في النفس، فإنه يسمى حباً. ويصبح هو المحرك والدافع للمبادرة، ويصار إلى التعبير عنه بلغة الأفعال أو الأقوال، التي تتجاوز الرحمة لرؤية العجز والنقص، لتصبح ظاهرة تعامل وسلوك طبيعي بين الزوجين.

وهذا هو ما يعبر عنه بالمودة فقد فسرت بأنها حب يظهر أثره في مقام العمل[1].

---

(1) تفسير الميزان ج16 ص166 وراجع: الوافي ج1 ص68 وكنز الفوائد للكراجكي.

هـ: وذلك كله يجعلنا ندرك بعمق معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فإن هذين العنصرين هما الأشد رسوخاً، والأعمق والأعظم أثراً في إقامة واستقامة الحياة الزوجية..

كما أنه يعرفنا بصورة أوضح وأتم بعض السبب في قوله تعالى «لكم» في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، حيث لم يقل: خلق من أنفسكم.

ويعرفنا أيضاً بعض السبب في قوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾..

و: وصرحت الآيات: بأن اعتبار المنام في الليل والنهار، والابتغاء من فضل الله تعالى من جملة الآيات التي تستبطن آيات أخرى.

وهذا أيضاً هو حال ما ذكرته الآيات عن إنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وخلق السماوات والأرض. إن ذلك أمر يثير الدهشة.. لاسيما وأن هذه الأمور هي مما لا يكاد الناس يعيرونها اهتماماً، أو يكلفون أنفسهم عناء التأمل فيها. أو يخطر على بالهم أن فيها شيئاً غريباً أو عجيباً، فضلاً عن أن يجعلها في الأهمية والخطورة في عداد خلق الإنسان من تراب، أو خلق السماوات والأرض..

وكل هذا يؤكد لنا عجزنا عن إدراك مرامي هذا القرآن، ومعانيه، فإنه لا يعرف القرآن إلا من خوطب به، وهم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

## عود على بدء: لا أقسم، لماذا؟!:

**ويلاحظ ما يلي:**

**ألف**: قد تكرر في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ**﴾، فلاحظ الآيات التالية:

﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾(1).

﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾(2).

﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ * إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**﴾(3).

﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾(4).

﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾(5).

﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ**﴾(6).

---

(1) الآيتان 75 و 76 من سورة الواقعة.

(2) الآيات 38 ـ 40 من سورة الحاقة.

(3) الآيتان 40 و 41 من سورة المعارج.

(4) الآيتان 1 و 2 من سورة القيامة.

(5) الآيات 15 ـ 18 من سورة التكوير.

(6) الآيتان 16 و 17 من سورة الإنشقاق.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[1].

فالسؤال هو: لماذا لا يقسم؟!

ب: يضاف إلى ذلك: أننا نجد في مقابل ذلك: إنه تعالى في مورد آخر يعود فيقسم ببعض تلك الأمور التي قال سبحانه: إنه لا يقسم بها، فقد تقدم مثلاً: أنه لا يقسم بهذا البلد وهو مكة، ولكنه عاد فأقسم به في قوله:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2].

ج: في مورد آخر يقول: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[3].

د: ويقول أيضاً مقسماً بالليل والفجر: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[4]. ويقول: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[5].

هـ: ويقسم بالنفس، فيقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[6].

فكيف نوفق بين هذه الآيات؟!

**ونجيب:**

---

(1) الآيات 1 ـ 3 من سورة البلد.

(2) الآيات 1 ـ 4 من سورة التين.

(3) الآية 1 من سورة النجم.

(4) الآية 1 و 2 من سورة الفجر.

(5) الآية 1 من سورة الليل.

(6) الآية 7 من سورة الشمس.

**أولاً**: بالنسبة للقسم بالبلد الأمين في سورة التين، نقول:

إن الذي أراد الله سبحانه وتعالى ان يتحدث عنه في سورة البلد، ويؤكد عليه بالقسم بالبلد، ولكنه لم يقسم به إجلالاً لرسول الله «صلى الله عليه وآله» هو أمر يرتبط بمعاناة الإنسان، ومكابدته لهموم الحياة، ومواجهته لمغرياتها، بهدف دفعه إلى التماسك أمام المغريات، وعدم الاستجابة للدواعي الشيطانية، والنوازع الشهوانية، وتحذيره من التمرد والطغيان، وحثه على لزوم جادة الحق والخير، والاستقامة على طريق الهدى، ومجاهدة النفس والشيطان. والاستجابة لنداء الوجدان، والطاعة لله، ولرسوله فيما أمر به ونهى عنه.

فاقتضى ذلك تعظيم حرمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» وتفخيم أمره، وإظهار جلال مقامه عند الله.. فجاء هذا البيان الإلهي الرائع في هذا السياق.

ومن جهة أخرى، فإن الناس كان مؤمنهم وكافرهم يقدس مكة، ويرى لها عظيم الحرمة والمقام الجليل لأجل الكعبة، التي جعلها الله تعالى فيها.. فبيَّن تعالى أن العنصر الأهم والأعظم أثراً في هذا التقديس هو أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيها.. فدلنا ذلك على أن الطاعة والتقديس الأوفى والأتم يجب أن يكون له «صلى الله عليه وآله»..

ب: وهناك خصوصية أخرى كانت كامنة في البلد نفسه، اقتضت القسم بالبلد الأمين في سورة التين، وهي خصوصية الأمن التي تفرد فيها دون سائر بقاع الأرض، فإن توفر هذه الخصوصية فيه معجزة ما بعدها معجزة لمن عقل وتدبر، وتأمل وتفكر، فإن هذا البلد كان فاقداً لكل العناصر التي يحتاج إليها هذا الأمر.. فهو:

**1** ـ بلد يهيمن على أهله الجهل المطبق، فإنهم ـ عموماً ـ لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

**2** ـ إنه بلد يعيش أهله في جاهلية جهلاء، ويخبطون خبط عشواء في الليلة الظلماء، ولا أمل فيهم بصلاح، ولا بإصلاح، وهناك حالة من السفه، والانفلات الأخلاقي كانت تهيمن عليهم إلى أبعد الحدود.

**3** ـ هو بلد ليس فيه سلطة تحكم، ولا يهيمن عليهم نظام، ولا يخضعون لقانون، إلا ما يفرضه المنطق العشائري، والأعراف الجاهلية، وما تمليه عليهم المصالح والأهواء، والجهل والالتواء..

**4** ـ إنه ليس بلد زراعة، ولا تجارة، ولا صناعة، بل هو بلد قاحل، فاقد لكل مقومات الحياة، ولا يملك أية ثروات لا حيوانية ولا طبيعية، وأهله يعيشون بين حجارة خشن، وحيَّات صم، يأكلون الجشب، ويشربون الكدر.

**5** ـ إنه بلد يضج بالجوع الكافر، وبالفقر المدقع، وقد كان الرجل يدفن ابنته وهي حية، مخافة أن تأكل من طعامه.

**6** ـ إنه بلد مشحون بالشرك والكفر بأسوأ أنواعه، وأبشع مظاهره، تعبد فيه الأخشاب والأحجار، وقد أراد الله تعالى لهذا البلد بالذات الذي يضج بالكفر، أن يكون موئل التوحيد والتنزيه، ومنار الإيمان، وأن يعمر بالتقوى، وأن يكون محور معرفة الله..

إنه يريد هذا البلد المعمور بعبادة الأصنام، عامراً بالخشوع والعبادة، والتبتل والتهجد لله تعالى..

فيريد هذا البلد الذي انغمس الناس فيه بالرذائل، والمعاصي والموبقات،

ـ يريده ـ ربيع الفضائل والسجايا الكريمة، والصفات الحميدة، وموضع تزكية النفس، ومنارة الأدب والأخلاق والقيم..

وعوضاً من أن يكون غارقاً في ظلمات الجهل، يريده منارة للعلم، ومصدراً للمعارف للدنيا كلها.

ويريد هذا البلد الفاقد للنظام والقانون أن يكون هو المنشأ والمصدر له، وإليه المنتهى في النظم والدساتير والقوانين، والشرائع السماوية.

ويريد هذا البلد الذي يقضى فيه بالهوى، وتهيمن عليه العصبيات القبائلية والعرقية، أن يكون بلد المساواة والعدل والقضاء، وبلد التآخي والتعارف والتعاون، والتصافي بين الشعوب والقبائل.

ويريد أن يكون هذا البلد الذي لا يمكن أن يرغب عاقل بسكناه، فضلاً عن غيره من الأماكن بلداً تهوي إليه الأفئدة، وتشتاق إليه النفوس، ويقصده أهل الأرض من كل حدب وصوب، وتحج إليه ملائكة السماء.

ويريد أن يكون هذا البلد الماحل والقاحل، بلداً تجبى إليه ثمرات كل شيء من كل البقاع والأصقاع.

والبلد الذي كانت تهتك فيه الحرمات، ويخاف فيه الآمن، يريده حرماً آمناً، يأمن فيه كل خائف، ويلجأ إليه كل مكروب، ولا يعتدي فيه حتى على الحيوان والنبات والشجر، وكل ذي حق أو حرمة، في حين أن الناس يتخطفون من حولهم، ولا يأمنون على أنفسهم.

إنه يريد أن يتحول بلد الظلم والجور والطغيان ليصبح بلد العدل والقسط.

وبلد الحرمان والاستئثار يصبح بلد التضحية والإيثار.

وبلد التباغض بلد المودة..

وبلد الضعف والذل والمهانة بلد القوة والشرف والكرامة.

وبلد طغيان الأهواء والرذائل، بلد هو مهد للقيم والفضائل.

وبلد انتهاك الحرمات والعدوان على الكرامات.. بلد الشهامة والكرامة، والقيادة والإمامة.

وبلد التبعية والاستخذاء والخضوع والخنوع والقهر. بلد الحرية والسيادة والزعامة، والقيادة والإمامة والريادة.

وبلد النزوات والشهوات الحيوانية. بلد المزايا الإيمانية والأخلاقية، والإنسانية.

إن بلداً هذا حاله يكون تحوله إلى بلد يشع فيه العلم والدين والعدل، وتصان فيه الحرمات والأخلاق، والقيم، والغنى، والقوة، والأمن والإيمان.

وتتحقق فيه هذه الغايات النبيلة، وتنتعش فيه الأمل بالحياة الكريمة من رابع المستحيلات.

**ولأجل ذلك**: أقسم الله سبحانه بهذا البلد، الذي أصبح آمناً، وصارت له هذه الحرمة، وينعم برغد العيش.. لأنه معجزة إلهية كبرى، تستوجب أن يقسم بها، لكي يؤكد للناس الذين يصرون ويعيشون هذه المعجزة، أن ما يقوله لهم عن الأسرار الكبرى، الكامنة في خلق الإنسان، وأنه تعالى قد خلقه في أحسن تقويم.. هو عين الحقيقة التي لا ريب فيها، والحقيقة الواقعة التي لا يمكن المراء فيها.. والذي يثبت ذلك لهم هو المعجزة الماثلة امامهم، التي تجسد لهم وعده لأبيهم إبراهيم «عليه السلام» حين قال: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ**

**أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم﴾**[1].

**فقد صرحت هذه الآية:** بأن هذا الوادي غير ذي زرع، وبأن هدف إبراهيم «عليه السلام» هو أن يسكن ذريته في ذلك الوادي، لكي يقيموا الصلاة عند بيت الله المحرم.. مما يعني أنه بلد محرم، وبلد توحيد، وبلد أمن وأمان، وبلد يمكن العيش فيه، وبلد يرغب الناس في القدوم إليه، وبلد لا تهتك فيه الحرمات، ولا يكون فيه ظلم ولا عدوان، وغير ذلك.. وحسبنا ما ذكرناه هنا، فإن الكلام في هذا الأمر يطول.

هذا ما يريده لهذا البلد، ويريده أنبياء الله تعالى. ولو أن الناس أطاعوا الله ولم ينحرفوا بالمسيرة، ولم يمكنوا حكام الجور عبر التاريخ من الهيمنة على هذا البلد لتواصل الإنجاز الذي حققه رسول الله.. ونحن موعودون بتحققه إن شاء الله بصورة كاملة وشاملة على يد سبطه الإمام قائم آل محمد «عليه السلام» الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

**ثانياً:** بالنسبة لقوله تعالى: **﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾** في سورة القيامة، ثم قوله تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾** نقول:

**إن التأمل في الآيتين يعطينا:** أن الله سبحانه يريد أن يفهم الإنسان قيمة النفس اللوامة، ومدى أهميتها، وأن عليه أن يعرف لها هذه القيمة، ويهتم بتقويتها، ويصغي لإرشاداتها، وينقاد لها، فأعطاها هذه المكانة من خلال صيغة إجلالها عن القسم، حتى مثل إثبات هذا الأمر الخطير المرتبط بإنكار

(1) الآية 37 من سورة إبراهيم.

البعث بسبب توهم عدم إمكان جمع العظام البالية، فإنه إن كان هناك حاجة إلى القسم بالنفس اللوامة، فينبغي أن يكون على أمر أعظم وأخطر بمراتب كثيرة.

**فظهر**: أن الذي يريد أن يجله عن القسم في سورة القيامة هو خصوص النفس اللوامة، وهي النفس الشريفة المنجية، التي تستحق الإكبار والإجلال، لأنها التي تدعو الإنسان إلى الخير، وهي هبة جليلة منَّ الله تعالى بها على عباده، فهي أكبر وأجل من أن يقسم بها على دفع توهم باطل كهذا. وبهذا يكون الله سبحانه قد عظمها مزيد تعظيم، حين أجلَّها عن أن يقسم بها حتى في هذا الأمر.

أما التي أقسم بها في سورة الشمس، فهي مطلق النفس التي خلقها الله سبحانه وفق مقتضيات سنن التكوين، التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته، والتي ربما تكون قد تعرضت لكثير من المؤثرات والعوارض السلبية التي اكتنفتها في بدء خلقها، ولو من جهة مشروعية العلاقة التي نشأت تلك النفس عنها، أو المآكل التي تناولها الأبوان، أو غير ذلك من الممارسات والعوامل الكثيرة.. نفسية أو غيرها، التي رافقت نشوءها.

ثم لما ألهمها الله تعالى بعد خلقها فجورها وتقواها، فإن النفس اللوامة تكون هي التي تسعى وتبذل الجهد لتعديل المسار، ودفع الأخطار، وقد تنجح، وقد تفشل في مسعاها، وتحقيق مبتغاها، فهذه النفس التي أقسم بها هي الأخرى مخلوق عجيب، ولها قدراتها، وهي التي تختار وتشاء.. فإما تقود الإنسان إلى السعادة الأبدية والهناء، أو إلى الشقاء الدائم والبلاء والتعب والعناء في الدنيا والآخرة..

**ثالثاً**: بالنسبة لقوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ والآيات الأخرى التي أقسمت بالنجم، فإن الأمر فيها ظاهر، فإن مواقع النجوم غير النجوم، والنجم وإن كان مخلوقاً بديعاً، وآية من آيات الله، وقد أقسم الله تعالى به في بعض آياته، ولكن الأهم والأعظم هو مواقع النجوم.. التي إن حصل أي اختلال فيها مهما كان قليلاً وضئيلاً، فربما يقضي على الكائنات كلها، حيث يقع التصادم الكارثي الهائل، على مستوى العالم بأسره، لو أن الشمس مثلاً اقتربت من الأرض، وتجاوزت موقعها بمقدار ضئيل جداً فقد تتبخر مياه البحار والأنهار، وتذهب ثرواتها، فيحترق الشجر والنبات، وتنعدم الحياة.

وكذلك الحال لو ابتعدت عن الأرض بمقدار ضئيل أيضاً. فإن كل مياه البحار سوف تتجمد، وسينمحي كل أثر للحياة على الأرض أيضاً.

أما التصرف في النجم وتحريكه من موضعه بقدرة الله، ضمن دائرة التدبير، والقدرة الإلهية، التي تمسك ﴿**السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[1]، فهو امر يبقى مفهوماً ضمن دائرة الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة، فيصح القسم بالنجم إذا هوى.

أما القسم بمواقع النجوم فهو القسم العظيم لو كنتم تعلمون.

أما بالنسبة لسائر الآيات التي ذكرنا آنفاً أن الله أقسم بها تارة، وأجلَّها عن القسم تارة أخرى، فإن التأمل في الخصوصيات الواردة في كل مورد منها يكشف الفوارق والخصوصيات القائمة بين الموارد، وهذه الخصوصيات

(1) الآية 41 من سورة فاطر.

هي التي تجيب على الأسئلة المطروحة، فلاحظ.

أما نحن فنكتفي هنا بما ذكرنا، لأن هدفنا هو مجرد فتح الباب على الجواب. والله أعلم بالصواب.

# الفصل الثاني:

# (وَالضُّـــــحَى..)

**بداية:**

**1** ـ تقدم معنا في الفصل السابق: أن شدة قرب بعض الأشياء من الإنسان، وشدة وضوحها له، تفقده الكثير من الرغبة في البحث عن غوامضها وأسرارها، بل قد تفقد الكثير من أهميتها عنده، وتصبح أمراً عادياً. وإن كان هذا القرب منها، والأنس بها يوجب شدة تعلقه بها، ويصعِّب عليه التخلي عنها، ولكن لهذه الصعوبة منشأً آخر، وهو أنانيته، واعتبارات أخرى تذهب به بعيداً عن موضوع الرغبة في اكتشاف الغوامض، واكتناه الأسرار.

وقد ذكرنا أمثلة عديدة على ذلك فيما سبق، مثل آية: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[1]، فإن ذكر الله تعالى لهذا الأمر إلى جانب آيات خلق السماوات والأرض يعيد الإنسان إلى دائرة التساؤل عن السبب في ذلك، وعن الأسرار الكامنة، التي أهلته لأن يحتل هذا الموقع السامي بين آياته تعالى.

**2** ـ وقلنا أيضاً: إن قَسَمَ الله تعالى بمخلوقاته يدلنا على أمور منها:

**ألف**: التدليل على عظمة، أو الإرشاد إلى أهمية ما أقسم به. إما بالنسبة

---

(1) الآية 31 من سورة الروم.

لمن أقسم، أو بالنسبة لمن يقسم عليه به.

ب: إن جعلها مورداً للقسم الإلهي يدل على أن المطلوب هو التحفيز على التدبر والتأمل فيها، والسعي لاستخراج أسرارها ودقائقها.

ج: إن القسم إذا أتى من البشر قد يوجب تهمة الآخرين بأن من أقسم بهذه الأشياء يهرق بما لا يعرف. أما إذا جاء القسم من قبل عالم الغيب والشهادة. فإن الأمر يصبح له منحى آخر.

د: إن هذا القسم يفهم هذا الإنسان بأن عليه أن لا يستسلم للغفلة، وأن لا يصرفه إلفه للأشياء عن أسرارها وعن دقائق حقائقها.

**التوسع بالاحتمالات رقي وكمال:**

**ويحق لنا بعد ما تقدم أن نقول:**

إنه ليس من حق أحد أن يتهم الباحثين والمدققين بأنهم مهووسون بأمور لا طائل فيها، وهي أن تدقيقاتهم هذه إتلاف للعمر والجهد، بل يجب أن يعتبر هذا التوسع في الافتراضات والاحتمالات، ومتابعة العمل لتأكيدها أو تفنيدها هو الخطوة الجديرة بالاحترام والتقدير، على طريق التكامل والتسامي، وهو المفتاح الطبيعي لمغاليق الأسرار، وكشف الأستار، والتشبث بأسباب القوة، وامتلاك السلطان الذي يعطي الأمل بأن يفتح أمام الإنسان المثابر والمجدِّ أبواب السماء، لاكتشاف أسرارها، والنفوذ من أقطارها، كما قال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ**

عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾[1].

فقد بينت هذه الآية المباركة أن ثمة إمكانية للإختراق والنفوذ من أقطار السماوات والأرض، والوصول إلى عوالم أبعد، ولكن ذلك يحتاج إلى سلطان وقوة تتلافى الاصطدام بالموانع التي تعترض سبيل من يحاول ذلك، أو تحصنهم من التأثر بتلك الموانع.

ومهما يكن من أمر، فإن الإنسان كلما ازداد علماً وتقوى يزداد استقامة، لأنه يصبح أبصر بمواضع الخير، فيتوخاها. وبمواضع الشر فيتحاشاها، ويصير بذلك أكثر انضباطاً.

كما أن ذلك ينمي معرفته بقدرة الله، وبحكمته وتدبيره، ويصبح أكثر إحساساً برعاية الله، ثم هو يعرف حده، فيقف عنده.

وبذلك تكون هذه المعرفة من أسباب ووسائل التربية الإلهية، وتزيد الإنسان وعياً ونباهة، وتعرِّفه بجوانب الضعف لديه، وتدعوه بصورة تلقائية إلى أن يعطي عقله دوره، وتجعله أكثر انقياداً لداعي العقل والبصيرة منه لدواعي الشهوات والنزوات الخطيرة..

ويصير أيضاً مستعداً لتوظيف معارفه في إنتاج الحياة، وتوفير مفردات الراحة والسعادة فيها، وتنظيمها على أسس وضوابط صحيحة وسليمة.

(1) الآيات 33 ـ 35 من سورة الرحمن.

**أهمية أوقات بعينها:**

**1** ـ هذا وقد لاحظنا كيف أنه تعالى يقسم في كتابه الكريم بفترات وقتية معينة، كالضحى، والفجر، والعصر، والليل إذا سجى، وما إلى ذلك.. ولولا هذا، فإن أحداً من الناس لا يكاد يحتمل أو يلتفت إلى أن لها دون سواها أي وظيفة، أو دور، أو أثر خاص بها يميزها عن غيرها، ويجعل منها ضرورة حياتية تختل الحياة بدونها، وتبطل وتتلاشى كثير من مكوناتها الأساسية، وتتبدل طبائع كثير من الأشياء، حتى الماء والهواء، والشجر والحجر، والنبات والثمار، والإنسان والحيوان، وربما تصبح الحياة مستحيلة بدونها أو تكاد.

**2** ـ ولأن خصوصية الأوقات قد تتعدد وتختلف فيما بينها، فقد رأينا أن القرآن يشير إلى أهمية وحساسية هذا التفاوت بين الخصوصيات.

**لعل من تجليات ذلك**: أنه سبحانه قد أقسم في هذه السورة بالضحى، ثم ثنَّى بالليل إذا سجى، ولكنه في سورة الليل أقسم بالليل أولاً، ثم ثنَّى بالنهار.. ربما لأنه أراد أن يبين أن المطلوب في هذه السورة هو لفت النظر إلى حالة السجوِّ في الليل. أما في السورة السابقة، فاراد لنا أن نتأمل في كيفية غشيان الليل وانبساط النهار.

ولا بد أن لا نغفل عن المبرر لبدئه في هذه السورة بالضحى، وجعله هو المرتكز الأهم، والأولى بالتقديم. ثم ثنَّى بالليل مع ابتدائه في السورة السابقة بالليل وكيفية حلوله ونزوله، وأعطاه الأولوية بالتقديم، ثم انتقل إلى كيفية تجلي النهار..

3 ـ إن القسم بأجزاء من النهار، وأجزاء من الليل يدلنا على أن لكل جزءٍ من أجزائها أسراراً مهمة، وحساسة، وأثراً جيداً على الحياة الإنسانية وعلى أحوال سائر الموجودات..

وما يمكننا الوصول إليه، والحصول عليه من تلك الآثار والأسرار، هو ما كان محسوماً وملموساً لنا، أو قريباً من المحسوس. ويبقى ما عداه، وهو الأهم والأعظم مكنوناً ومحجوباً عنا، نحتاج للوصول إليه إلى معونة ودلالة، من معدن الوحي والرسالة..

**جهد القاصر والعاجز:**

إن علينا أن نعترف: أننا حتى حين نتحدث عن بيان بعض ما هو محسوس لنا، لا نستطيع أن ندعى أننا قد أصبنا كبد الحقيقة فيه. وإن كنا نرجو ذلك.. ولكن علمنا بأننا غير معصومين عن الوهم، وعن الخطأ في الفهم، واعترافنا بذلك هو الذي خوَّلنا أن نعرض هنا بعض ما ندعي أننا قد فهمناه من آيات هذه السورة، فنقول:

**ما هو الضحى؟!:**

والضحى هو تلك الفترة التي لعلها أجمل، وأبهى ساعات النهار، وأرضاها للإنسان، وهي فترة ارتفاع الشمس، واستيلاء ضوئها الباهر على مختلف الأنحاء والأرجاء في جزء كبير من المعمورة في ساعات الصباح.

**الضحى أهم الساعات:**

وهذه الفترة هي:

**1** ـ الأكثر حيوية وأهمية في حياة الناس، وهي فترة الذروة في نشاطهم وسعيهم.

**2** ـ هي فترة مواجهة شياطين الإنس والجن في أوج نشاطهم وحركتهم، حيث يخرج فيها الإنسان ليتعامل مع الآخرين في أمور دنياه، وحيث يسعى فيها لتحصيل لقمة عيشه، وتسوية وتطوير أوضاعه الحياتية، فيواجه المغريات على اختلاف أنواعها، ويبتلى بمواجهة ألاعيب وتزيينات ووسوسات شياطين الجن والإنس، وينساق ـ من خلال ذلك ـ إلى الكذب حتى على الصادقين، والخداع للمغفلين، وقد يمارس التزوير والمكر بالناس، إلى غير ذلك من الأساليب الشيطانية واللامشروعة، فيلقي بنفسه في غمارها، فيجرفه تيارها.

ثم هو يُبتلى باكتساب الأموال من غير حلها، وارتكاب الآثام ويتحول من ثم إلى شيطان في صورة إنسان، ويخسر بالتالي آخرته، بل ودنياه، ويضل سعيه في الحياة الدنيا، مع أنه يحسب أنه يحسن صنعاً..

**3** ـ إن كل هذا وسواه مما له نفس سماته، ويحمل نفس معناه يكون في أكثر الأحوال في وقت الضحى.. ولكن ذلك لا يعني أن ذلك من القضاء المحتوم الذي لا مفرّ منه، ولا محيص عنه، بل هو بلاء اختاره الإنسان بنفسه لنفسه، ولو اختار أن يكون هذا الوقت من موجبات سعادته وفوزه، في الدنيا والآخر لكان له ذلك أيضاً.. وذلك بأن يختار أن لا يراه الله تعالى إلا

في مواقع طاعته ورضاه.

**4** ـ وقد فتح الله تعالى له أبواب طاعته، ودعاه إلى مواقع رضاه، وقد شرع له الكثير من الطاعات التي تعينه على ذلك، بدءاً من الصلوات المستحبة قبل أن يصبح في يومه ذاك، ثم صلاة الصبح الواجبة، وما يصاحب ذلك من طاعات وتسبيحات، وتهجد ودعاء، وقراءة قرآن، وغير ذلك، وانتهاءً بالأدعية التي علمه الله تعالى إياها حين يريد أن يخرج إلى السوق، أو إلى السفر، أو إلى أي عمل كان.

بالإضافة إلى سائر الأحكام، والمواعظ والتوجيهات التي يتوقع منه أن يستفيد منها في تهذيب نفسه، وضبط حركته، وتحصنه من طاعة الشياطين، وتعينه على نفسه الأمارة بالسوء، وتسوقه إلى تلبية رغباته، وإشباع شهواته بالاستفادة مما هو حلال ومشروع.

**5** ـ إن فترة الضحى هي فترة اختبار هذا الإنسان وتحديد مستوى صلاحيته، واختبار ما زوده الله تعالى به من قدرات وملكات، وأعطاه الله إياها من عقل وفطرة، وطاقة، وسائر الخصائص التي يمتلكها، ومدى استفادته من المفاهيم والقيم التي يحملها، ويفترض به أن يتعامل بها مع الآخرين، وفيها يمتحن مدى انقياده للأوامر والزواجر الإلهية وطاعته للأحكام الشرعية، وانتفاعه بالنصائح والمواعظ، ويختبر سلوكه وأخلاقه ومشاعره النفسية، وعقله وكل ما أعطاه الله إياه، ويمتحن أيضاً علاقته بالله وبالناس إلى آخر ما هنالك مما له ارتباط بسعادته وشقائه، وسلامته وبلائه.

فهي إذن، ساعة حساسة جداً، لها أهميتها في إظهار مزايا الناس التي يتفاضلون بها.

ووقت الضحى بالإضافة إلى ذلك، يحمل معه اختبار الإنسان في فطانته وكياسته، وتدبيره في جميع المواضع والمواقع. أي سواء أكان في بيته ومع عائلته، أو في مدرسته مع تلميذه أو مع أستاذه، أو رفيقه. وفي إدارته، ومحيط عمله وكل من وما يتعامل معه، وفي أي موقع كان.

إن تعامله في كل مواقعه هذه، وسواها، يظهر حقيقته، ويكشف ستره.. فقد يكون تعامله مريباً أو خائناً، ومدلساً، أو خاطئاً، أو مرذولاً، وقد يكون نقياً وطاهراً، وسديداً ورشيداً، أو صادقاً أو صائباً.

**6** ـ وهو أيضاً اختبار لعقل الإنسان، وخلَّاقيته. وسداد رأيه ومشورته، وسلامة مساره، وصحة أحكامه. ومدى فعاليته وأثره في حركته العملية، وفي كل مسعى يقوم به. سواء أكان حياتياً ومعيشياً، أو روحياً وعبادياً، أو سلوكياً وأخلاقياً.

**7** ـ وفي هذه الفترة يتم اختبار نفس الإنسان وروحه من حيث طهارتها وصفائها، أو من حيث رجاستها وخبثها، وسوء سرائرها..

**8** ـ ومما ينبغي الالتفات إليه هنا: هو الجهة الجمالية في ساعة الضحى، حيث النور يفيض على مختلف الكائنات المقابلة لجرم الشمس، ويكون مستوعباً ونافذاً، ودافئاً ومؤثراً، ومحركاً لنبضات الحياة، ومثيراً للحيوية فيها. ويبث في هذه الكائنات من كوامنه، وما حباه الله تعالى به حيوية ونشاطاً، ويغذيها بأنواع من الحاجات الضرورية التي لا غنى لها عنها.

وتهب لنا هي ـ من ثم ـ من خزائنها، وتجود علينا من مدخراتها ما يبهر

العقول، ويحير الألباب، ولا يقتصر ذلك على كائن دون آخر، بل يعم النباتات والأشجار، والحبوب والثمار، والمياه والأنهار، والهواء والماء، وكل ما في الأرض والسماء.. فضلاً عن الإنسان، وغيره من المخلوقات الحية.

فالضحى إذن آية باهرة، وليس مجرد ساعة عابرة، فهي معجزة ظاهرة، جعل لها بداية ونهاية، وقدَّرها سبحانه بمزيدٍ من العناية، وحباها بالرعاية.

وهي ساعة صلاح وإصلاح وخير بلا ريب ـ كما قلنا ـ ولو تواصلت وطالت عما هي عليه، وصارت بمقدار يوم أو أسبوع، فإنها ليس فقط سوف تفقد أثرها، وفعلها، وإنما هي سوف تصبح مؤذية ومدمرة..

شاهدنا على ذلك قوله تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**[1].

وليلاحظ قوله في الآية الأولى: **﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾**. فإن حاسة السمع هي التي تناسب حال الليل، وهي التي يعتمد عليها الإنسان، بعد أن حجبت الظلمة عنه الرؤية للأجسام.

وقوله في الآية الثانية مشيراً إلى الباصرة: **﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**. لأن الباصرة هي الآلة الأكثر استعمالاً في وضح النهار.

**وقد بين تعالى في هاتين الآيتين:** أن كلاً من الليل والنهار، الضروريين

(1) الآيتان 71 و 72 من سورة القصص.

لبقاء الحياة، وهما من أسباب الراحة والسعادة فيها، لو طال أي واحد منهما وزاد عن حده، وبقي إلى ما لا نهاية.. لتحولت الحياة إلى أمر بالغ الصعوبة، ولا بد أن تنتهي إلى فناء وزوال. ويستوي في هذا الليل والنهار.

# الفصل الثالث:

## (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى..)

**بداية:**

لا حاجة إلى التذكير بأننا أعجز عن أن نفقه معاني القرآن، ولكننا نحاول تلمس بعض ظواهره من خلال استنطاق الكلمات بالمقدار الذي تسعه أفهامنا القاصرة، وبضاعتنا المزجاة البائرة..

كما لا حاجة إلى إعادة التأكيد على أن الكثير من المعاني والأسرار القرآنية لا يكشفها إلا الزمن من خلال تظافر الجهود، وبذل الأمم أقصى مجهوداتها، ويبقى الكثير الكثير، بل الأهم والأكثر، والأعظم أهمية والأخطر مما اختص الله تعالى به أولياءه، وهم: النبي والأئمة من أهل بيته «صلوات الله عليهم أجمعين».

**الليل والنهار مخلوقان:**

**فبملاحظة ما تقدم، وفيما يرتبط بهذه الآية المباركة نقول:**

**1 ـ** قال تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾[1].

فالنهار إذن مخلوق، والليل مخلوق مثله، والخلق إما هو الإبداع والإيجاد من العدم، أو هو التسوية للشيء، وإعطاء الصورة والشكل لمادة موجودة

---

(1) الآية 33 من سورة الأنبياء.

ومخلوقة، والتسوية له كما إشير إليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾(1). ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾(2).

**من أجل ذلك نقول:**

إننا لا نستطيع أن نطمئن لمقولة: إن الليل هو نتيجة انعدام النور، بل الليل مخلوق آخر في قبال النهار، وله حقيقة واستقلال عنه..

وقد حاول بعض الإخوة تقريب المعنى، فقال: إذا كان الأصل قبل الخلق هو العدم، فمن المنطقي القول: إنه بعد انقضاء النهار الذي خلقه الله سبحانه سنرجع إلى العدم، أو إلى حالة غير معروفة، إلا إذا خلق الله سبحانه شيئاً يخلف النهار، فكان هذا الشيء هو الليل. وبعد انقضاء الليل، فإن نفس المنطق يقودنا إلى أننا سنصير إلى العدم، أو إلى حالة غير معروفة، إلا إذا فرض الله تعالى تعاقبهما (على امتداد الحياة الدنيا). وهو قوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(3).

**واللطيف**: الإشارة إلى خلافة الليل للنهار، وخلافة النهار لليل، لتكتمل الدائرة، ويبقى الزمان يدور بينهما إلى ما شاء الله.

**2** ـ بل قد نستفيد من الشواهد والدلائل: أن لليل كثافة مادية، وجرماً أيضاً، ويؤيد ذلك، بل يدل عليه:

---

(1) الآية 5 من سورة الحج.

(2) الآية 110 من سورة المائدة.

(3) الآية 5 من سورة الزمر.

**أولاً**: قوله تعالى هنا: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾، فإن السجوَّ إذا كان حالة تعتري الليل نفسه، وهي من صفاته وسماته، وهي تستبطن الهدوء والاستقرار، فذلك يعني أن لليل حركةً وهدوءً، وثقلاً، وكثافة مادية. تماماً كما هو الحال في الهواء، وكما هو الحال في الظل، ويدل على أن لليل ثقلاً ووزناً، وأنه تعالى قد قرن خلق الليل بخلق الشمس والقمر الذين هما من الأجرام السماوية التي لها كثافة ووزن، وجرم محسوس وملموس..

**ثانياً**: ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾[1]، فإن السلخ إنما هو الفصل بين ملتصقين، باستعمال الشدة والقوة، ولو بواسطة الآلة، كما يسلخ الجلد عن البدن. وهذا يعني أن النهار والليل ليسا من قبيل العدم للوجود، فإن عدم الشيء لا يسلخ منه الشيء..

**ثالثاً**: هناك تسبيح مروي عن الإمام السجاد «عليه السلام» يصرح: بأن للظلمة وزناً، كما أن للنور وزناً أيضاً، فقد قال «عليه السلام»: «سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء، سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرة»[2].

**رابعاً**: يؤيد ذلك: الكلام الذي ردَّ فيه أمير المؤمنين «عليه السلام»، على كلام كعب الأحبار، فقد قال «عليه السلام»: إنه عز وجل: «خلق نوراً ابتدعه من غير شيء، ثم خلق منه ظلمةً، وكان قديراً أن يخلق الظلمة من لا شيء كما خلق النور من غير شيء.

---

(1) الآية 37 من سورة يس.

(2) إختيار معرفة الرجال (ط جامعة مشهد) ص119 وبحار الأنوار ج83 ص227.

ثم خلق من الظلمة نوراً، وخلق من النور ياقوتة إلخ..»[1].

## لليل منافع جليلة:

ثم إن لليل المخلوق منافع جليلة، وجميلة، وفوائد غير قليلة. وهذه الآية التي تقسم بالليل إذا سجى إنما تقسم بإحدى ساعات هذا الليل، فكيف إذا انضمت إلى سائر الساعات.

وقد أشار تعالى إلى بعض فوائد هذا الليل في بعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[2].

فهذا السكون الذي هو من فوائد الليل جعله الله تعالى من مظاهر رحمته. كما أنه تعالى قد صرح بأنه نعمة جليلة تقتضي الشكر من الناس.

بل جعل تعالى للناس بالليل آية تستبطن آيات يريد الله تعالى لنا أن نلتفت إليها أيضاً كما تقدم.

وهذا كاف في إظهار عظيم أهمية الليل، وبالغ أثره، وجليل خطره في حياة الإنسان..

وإن التصريح بأن الليل من آثار رحمة الله تعالى يدلنا على ما له من أثر في سعادة الإنسان، وراحته، إن لم نقل في بقائه أيضاً..

---

(1) بحار الأنوار ج30 ص103 وج40 ص195 ومجموعة ورام (تنبيه الخواطر) ج2 ص5 و 6.

(2) الآية 73 من سورة القصص.

ويضع هذا الأمر الإنسان أمام مسؤولية الاستفادة من هذا الليل وفق ما أراده الله تعالى. لا أن يحوله إلى وسيلة دمار وبوار له، ولكل ما ومن حوله، فيعتدي حتى على الشجر والحجر، والهواء والماء والأرض، وكل ما تناله يده من السماء وغير ذلك مما اختصته بها الرحمة الإلهية، ولكنه ما فتئ يستعملها في غير المواضع التي يرضاها الله تعالى، ويحولها من وسيلة سعادة وهناء، إلى سبب شقاء وبلاء، ويجعل منها سبب دمار وفناء وممات بدل أن تكون سبب بعث ورقي، وكمال وحياة.

فمثلاً، قد أعطى الله تعالى الإنسان القوة في الجسد ليستفيد منها في بناء حياته، ويحمل أثقالها، ويذلل صعابها، ويسهل مسالكها، ويزيل الموانع والحواجز التي تعترض سبيل رقيه وتكامله فيها، وتصدّه عن متابعة مسيرته في مدارج الكمال والرقي..

وليستفيد من قوته هذه أيضاً في إعانة الضعيف، ودفع المعتدي، وما إلى ذلك.

ولكنه صار يستخدمها في قتل البريء، وقهر الضعيف، وسلب الأموال، والتعدي على الكرامات، وإشاعة الفساد، وشد أزر الظالم الغاشم، وغير ذلك.

وأعطاه أيضاً العقل ـ وهو من أعظم النعم عليه ـ ليكون هو الذي يهديه، ويقود مسيرته على طريق الخير والصلاح، والفلاح، ولكنه صار يسخره في رسم الخطط، وابتداع الوسائل لتلبية حاجاته البهيمية، وحياكة المؤامرات، واختراع آلات التدمير، وكل ما يحدث خراباً ودماراً، وشقاء وبلاء، وتعباً وعناء.

وأعطاه الطاقة الجنسية ليستفيد منها في بقاء النسل، وفي بناء العلاقة العائلية الطاهرة وفق ما يرضي الله، وعلى أساس متين من الإخلاص، والمحبة،

والحميمية.. على قاعدة جعل الرحمة، وتوطيد العلاقة بالمودة، التي تنتج الحب، وتعطي الرضى والسكينة، والسلام والوئام، والمعونة التامة، انطلاقاً من الانصهار بين الزوجين في وحدة حقيقية، تجعلهما كياناً واحداً، يؤسس لأسرة تكون كالجسد الواحد، له أعضاء وجوارح تسعى في خدمته، وفي توفير الراحة والهناء، والسعادة له.

واستخدامه هذه العطية في غير موردها الصحيح، لا يعني لزوم إلغائها والاستغناء عنها، لأن ذلك يخل بأساس الحياة.. ولكنه يفرض لزوم التراجع عن الممارسة الخاطئة التي لجأ إليها بسوء اختياره.

**الليل والنهار هما المثال الآخر:**

والنهار، والليل مثالان آخران لا يصح تجاوزهما أو الغفلة عنهما.. فالله خلق النهار ليسعى فيه الإنسان، ويبتغي من فضل الله ما به يبني حياته، ويصل إلى أعلى درجات السعادة في الدنيا والآخرة، وإذ بهذا الإنسان يسيء الاختيار، ويتجه نحو ارتكاب المعاصي والموبقات، وإلى الإفساد والفساد في البلاد والعباد.

**ما ورد في الدعاء:**

ومما يدل على أن الهدف من خلق الليل والنهار هو تحقيق أقصى درجات الخير والسعادة، وإيصال هذا الإنسان إلى الغايات الشريفة والسامية هو اعتبارهما من رحمته تعالى كما في الآية الشريفة في سورة القصص. فما الموجب للاستفادة منهما في معصية الله، وفي الإفساد، وإيصال الأذى للعباد؟!

ويكفي أن نذكر هنا دعاء اليوم التاسع والعشرين من كل شهر، كما يقول

العلامة المجلسي[1]، حيث يستحب أن يدعى في أول هذا اليوم بدعاء جاء فيه:

«الحمدلله الذي خلق الليل والنهار بقوته، وميز بينهما بقدرته. وجعل لكل واحد منهما حداً محدوداً، وأمداً موقوتاً ممدوداً، يولج صاحبه فيه، بتقدير منه للعباد فيما يغذوهم به، وينشئهم عليه.

فخلق لهم الليل ليسكنوا فيه من حركات التعب، وبهضات (ونهضات) النصب. وجعله لباساً، ليلبسوا من راحته ومنامه، فيكون ذلك لهم جماماً، وقوة. ولينالوا به لذة وشهوة.

وخلق لهم النهار مبصراً، ليبتغوا فيه من فضله، وليتسببوا إلى رزقه، ويسرحوا في أرضه، طلباً لما فيه نيل العاجل من دنياهم، ودرك الآجل في أخراهم.

بكل ذلك يصلح شأنهم، ويبلو أخبارهم، وينظر كيف هم في أوقات طاعته، ومنازل فروضه، ومواقع أحكامه، ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾[2]»[3].

**ونقول:**

إن هذا النص يدل على أو يشير الى أمور كثيرة، نذكر منها ما يلي:

**1** ـ لو كان الليل مجرد ظلمة ناشئة عن عدم وجود نور الشمس،

---

(1) وفي الصحيفة السجادية: إنه دعاء الصباح والمساء.

(2) سورة 31 من سورة النجم.

(3) بحار الأنوار ج94 ص306 عن العدد القوية، ومصباح المتهجد ص245 ومفتاح الفلاح ص85 والصحيفة السجادية: دعاء الصباح والمساء.

فذلك يعني أن لا يعبرعنه بأنه مخلوق آخر مقابل مخلوق اسمه النهار.

**2** ـ يلاحظ: أن هذا النص يقرر: أن القوة هي التي نشأ عنها خلق النهار والليل..

**3** ـ يلاحظ تقديم خلق الليل على خلق النهار..

**4** ـ يلاحظ أيضاً: أنه جعل الخلق نتيجة إعمال القوة.

ولكنه جعل التميز نتيجة إعمال القدرة.

**ولعل سبب ذلك**: أن القدرة تحتاج إلى موضوع لها تتصرف فيه، فإن معناها القوة على الشيء والتمكن منه. فهي المناسبة للتمييز بين أمرين موجودين.

أما القوة، فهي في مقابل الضعف، وهي طاقة التحمل، والتمكن من الفعل. فهي المناسبة للخلق، والإبداع من العدم.

**5** ـ إنه جعل الليل والنهار في جملة ما يغذو الله به عباده.. وينشِّئهم عليه..

فهما إذن، من أسباب النمو والزيادة، بل هما بمثابة الغذاء الذي لا غنى للبشر عن الاستفادة منه لاستمرار بقائهم، ونموهم في حياتهم..

**6** ـ إنه خلق الليل للبشر ليسكنوا فيه من الحركة التي وإن كانت يتوخى منها ـ غالباً ـ تحقيق غايات صحيحة، وجلب المنافع. ولكنها أيضاً من أسباب التعب، الذي يحتاج الإنسان إلى التخلص منه، ليستأنف حركة جديدة بصورة أقوى وأنشط..

**7** ـ قد يصل الأمر إلى أن يصل الإنسان إلى حد الفشل والعجز عن مواصلة الحركة، وربما تتجاوز حدود الطاقة، فكيف إذا كان الإعياء هو

الذي يبهض كاهل الإنسان؟!

**8** ـ فسرت الرواية قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا**﴾[1] بأن المراد: أن يلبسوا من راحته.. وهذا النحو من إجراء الكلام يشير إلى أن راحة الليل متنوعة الأطوار والأصناف، وأن كل إنسان يستفيد من أنواع هذه الراحة ما يناسب حاله.

**9** ـ إنه عطف المنام على الراحة، فقال: ليلبسوا من راحته ومنامه، فدلنا ذلك على أن المنام في الليل ليس هو كل ما يستفيده منه، بل هو أحد فوائده التي تضم إلى الراحة أيضاً..

فالسكون من الحركة فائدة من فوائد الليل، والراحة فائدة أخرى من فوائده، والفائدة الثالثة من فوائد الليل هي المنام.. بالإضافة إلى فوائد أخرى.

**10** ـ يلاحظ: أن العبارة المتقدمة قد أضافت الراحة والمنام إلى ضمير الليل مباشرة، فقالت: «ليلبسوا من راحته ومنامه»، ولم تتعد إليه بحرف الجر، فلم يقل: ليلبسوا من الراحة والمنام فيه..

لأن العبارة الأولى تجعل لليل راحة ومناماً يخصانه، ويضافان إليه، وهو الذي ينتجهما.

أما التعدية بواسطة حرف الجر في العبارة الأخيرة، فتدل على أن الليل مجرد ظرف للراحة والمنام الذين يجلبهما الإنسان، ويجعل الليل ظرفاً لهما، ويمكنه أن يجعل ظرفهما النهار أيضاً.. فالراحة والمنام أمران عارضان على

(1) الآية 10 من سورة النبأ.

الليل، وليس لليل فيهما أي دور أو أثر يذكر..

مع أن المطلوب هو إفهامنا عكس هذا المعنى..

**11** ـ وإذا كانت النتيجة: هي أن المنام والراحة هما من نتاج الليل فإن ذلك ينتج لنا أموراً ثلاثة هي:

**ألف**: الجمام. وهو الراحة.

ب: القوة..

ج: اللين..

**12** ـ ومن فوائد الليل بالإضافة إلى ما تقدم: أنه يعطي الناس فرصةً لينالوا فيه لذة، وقد جاء بهذه اللفظة: «لذة» منكرة. لأن كل إنسان قد تتوفر له لذة تختلف عن اللذة التي تتوفر لغيره من سائر الناس. من طعام، أو جلسة مسامرة، أو تمتعٍ بالنظر إلى السماء في كواكبها ونجومها، أو التلذذ بالتهجد والعبادة والدعاء، أو بصلة الأرحام، أو غير ذلك.. بحسب اختلاف الإمكانات أو القدرات أو الميول والرغبات..

**13** ـ ومن فوائد الليل أيضاً: أن يجدوا الفرصة لينالوا فيه شهوة محللة لهم.

**14** ـ وبعد أن تحدثت الفقرة المتقدمة عن فوائد النهار عادت فأجملت ما فصلته، فذكرت: أنه تعالى أراد بذلك كله:

**ألف**: أن يصلح شأنهم، من الناحية المعيشية والحياتية..

ب: أن يختبر مخلوقاته بهذه النعم، ويظهر مدى طاعتهم له، واستقامتهم على طريق الخير والحق والهدى.

ج: أن يتجلى شكر الشاكرين منهم، ويرى المطيعين في مواقع طاعته، وفي منازل فروضه، وهم يؤدون واجباتهم،، ويتجلى مدى رعايتهم لأحكام شرعه.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾(1)

**لو كان الليل سرمداً:**

وتقدمت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(2).

**حيث يلاحظ**: أنه تعالى قد ذكر آية الليل بصيغة منفصلة تماماً عن أختها آية النهار، ربما لتكون كل واحدة منها قاعدة على حدة، لأنها ذات مضمون مستقل تماماً عن مضمون الأخرى.

وفيما يرتبط بسرمدية الليل، ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، لأن الاعتماد في الليل يكون على حاسة السمع.

وفي النهار وسرمديته، ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، لأن الاعتماد في النهار على حاسة البصر. فنزَّل بصرهم في النهار وسمعهم بالليل منزلة غير الموجود، ثم سألهم عنه، فقال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، و ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، لأن وجوده كعدمه إذا لم ينتج عنه الإدراك العميق للمغزى

(1) سورة 31 من سورة النجم.

(2) الآيتان 71 و 72 من سورة القصص.

والمعنى، والتأمل في الأحوال وتقلباتها وآثارها..

**وقد تقدم**: أن الإنسان قد يحسب أن بقاء الضياء، واستمرار النهار خير له، ففي النهار يطلب الدنيا، وينال خيراتها، ويحصل على مقاماتها، ويسرح ويمرح، ويلتذ بدنياه بجميع حواسه الظاهرة والباطنة.

أما في الليل، فتحجب عنه بعض الملذات، وتتعطل قدرة بعض الحواس عن الوصول إلى ما كانت تصل إليه في النهار، ويحتاج إلى إعادة النشاط إليها وتفعليها، وإلى بذل جهود، واجتراح حلول للوصول إلى ما يحب الوصول إليه.

ولكن الله تعالى يقول لهذا الانسان: إن النهار وإن كان نعمة في كثير من الجهات والجوانب، فإن الليل نعمة أيضاً في جوانب وجهات كثيرة أخرى، ولا يغني أحدهما عن الآخر..

بل إن استمرار النهار كاستمرار الليل سيتحول إلى نقمة.. لأن استمرار أي منهما سوف يحوله إلى شقاء، والنعمة فيه إلى نقمة وبلاء..

**وقد قلنا**: إن النهار لو زاد عن حده، فتضاعفت ساعاته وصارت ثلاثين أو أربعين في جميع الكرة الأرضية، لاختلت أحوال المخلوقات. وتغيرت أحوال الشجر والنبات، والإنسان، والحيوان، والماء والهواء، والحجر والمعادن، وكل شيء، وتغيرت طبائعها، واندثرت معالم الحياة والنمو في أكثرها، إن لم يكن في جميعها، وأصبحت الاستفادة مما يمكن أن يبقى منها ضئيلة ومحدودة للغاية، وتتدنَّى لتصل إلى حد أن لا يستقيم معها حياة، ولا يستمر بقاء وتتلاشى وسائل الراحة.

هذا كله لو زاد الليل أو النهار ساعات محدودة، أو اختل التوازن بين الليل والنهار، فكيف لو أصبح الليل سرمداً على الناس إلى يوم القيامة، أو صار النهار كذلك..

فكون الليل والنهار بهذا المقدار البالغ الدقة هو الذي يبقي على الحياة، وعلى وسائل الراحة التي لا تحد بحد، ولا يحصرها عدّ، ولا يحيط بها خيال، وهو الذي يحفظ هذا الغنى في القدرات، والإمكانات الهائله، التي لا تنال مقاديرها أوهام البشر، وهي في ازدياد مطرد ونمو دائم..

**الليل الساجي:**

**ظهر مما تقدم**: أنه تعالى قد أقسم بالضحى، لأن هذه الساعة هي:

**1** ـ ساعة الذروة، وهي الأكثر حيوية، وحركة وأهمية في الحياة اليومية، وعلى الصعيد العام..

**2** ـ كما أنها الساعة الأكثر إشراقاً وبهاءً.

**3** ـ وربما كانت الساعة الأكثر جمالاً.

**4** ـ وهي الساعة التي تنتعش فيها الآمال، ويذكو فيها الطموح، وتستوفز فيها المشاعر، وتشرئب الأعناق، وتكثر التوقعات..

**5** ـ وهي الساعة التي تكون الأكثر نفعاً، لمن أحسن الاستفادة منها، والأكثر ضرراً لمن أساء التقدير، والاختيار.

**6** ـ وهي ساعة الاختبار للبشر، والابتلاء بالمغريات، والأكثر خطراً على الخُلق الإنساني وعلى الدين، وعلى القيم الإنسانية، وعلى مصير الإنسان

ومستقبله. والأكثر حساسية وخطراً على الحياة، كلها في الدنيا والآخرة..

إلى غير ذلك من أمور تقدمت الإشارة إليها..

ثم إنه تعالى أقسم بالساعة التي تقابل ساعة الضحى.. وهي الليل إذا سجى، لأن ساعة سجوِّ الليل هي ساعة الذروة فيه أيضاً، وهي:

**1** ـ أكثر ساعات الليل حيوية وأهمية بنظر الناس..

**2** ـ هي أعظم ساعاته نفعاً.

**3** ـ هي الساعة الأطيب والأهنأ والألذ.

**4** ـ هي الساعة التي يرى الناس أن مقاصدهم الليلية تتحقق وتتجلى فيها.

**5** ـ هي ساعة الراحة والسلام، لأن الاستعداد المستمر مرهق، وممل، وخانق.

**6** ـ ساعة الهدوء والاسترخاء، والاستسلام للأحلام.

**7** ـ ساعة تجديد القوى، واستعادة الحيوية والطاقة، والنشاط للجسد.

**8** ـ ساعة تعويض ما فقده من طاقة لما بذله من جهد في النهار..

**9** ـ ساعة التبذل، والشعور بالانعتاق من التكلفات التي يفرضها عليه تعامله مع الآخرين..

**10** ـ ساعة سكينة النفس وطمأنينها، والابتعاد عن صخب النهار، وعن العجيج والضجيج المرهق..

**11** ـ وساعة السجوّ هي ساعة هدوء الليل الدائم، وساعة ركود ظلامه وسكون رياحه، فيقال لليلة التي تهدأ فيها الرياح: ليلة ساجية. وسكون الرياح، لأن ضجيج الرياح يمنع حاسة السمع من تلمس

الأصوات والتمييز بينها، ومعرفة ما يخشاه منها من غيره. الأمر الذي يعطيه قدراً من الشعور بالأمان، فعسف الرياح يثير القلق في نفسه.

**12** ـ وهي ساعة هدوء الأصوات.

**13** ـ والليل الساجي هو الليل الساتر، والإنسان يحتاج إلى الشعور بعدم وجود رقابة عليه، ليتمكن من الاسترسال، وتفقد مواقع ضعفه.

**وللتوضيح والتأكيد نقول:**

**من المعلوم**: أن الرياح ضرورية لشؤون كثيرة، ولها وظائف ومهمات مختلفة، وهي مفيدة في تغذية الشجر، والنبات والثمر بالعديد من حاجاته.

وتفيد في التلقيح والترشيد وما إلى ذلك.

وهي تقوم بحمل وتوزيع الأوكسيجين وغيره من العناصر الحيوية المؤثرة.

وتنقل وتنشر أنواعاً من الكائنات الحية.

ولها دور في نشر وتوزيع كثير من أنواع البذور لكثير من أنواع النبات، وما يفيد في بث الحياة.

ثم هي تنقل ما في الأجواء من روائح، وتخفف من وطأتها.

وتمنع من تراكم الغازات الضارة ومن احتقان الأجواء بها. كما أنها تمزج بين أنواع من الكائنات، وهي تمنع من تأثير كثير من العناصر المنتشرة في الهواء من التأثير السلبي على التربة والحجر، وعلى النبات والشجر، وعلى المياه والثمار وسائر أنواع الكائنات.

وفضلا عن ذلك كله، فإن الرياح توزع الأصوات، وتمنع أو تخفف من

تراكماتها، ومن تراكمات ما تختزنه الأجواء من تسجيلات لصور وأشكال، ومن أمور وأحوال.

ولكن ذلك كله لا يغني عن ساعة هدوء وركود في حركة الرياح، لإعادة حالة الانتظام، الذي لا بد منه، لتمكين الموجودات من أخذ قسطها الطبيعي والضروري من حاجاتها، ولتحتل موقعها الطبيعي، في السياق العملي العام، بانتظام تام، ومن دون أي تشويش أو إرباك..

لكي تستأنف الرياح بعد ذلك حركتها ومهماتها، وتقوم بوظائفها الكبيرة، والكثيرة، والخطيرة وفق ما هو مرسوم لها.

**للظلمة دور ووظائف:**

ثم إن للظلمة دورها ووظائفها الحيوية. كما أن للنور أيضاً وظائف ومهمات، وللحرارة وظائف وأدوار، وللبرودة حالات وأطوار.. وهكذا يقال أيضاً بالنسبة للمطر والصحو، وللألوان والأشكال، وللسهول والجبال، وللانخفاض والارتفاع، ولكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون الفسيح، فإنها كلها نعم إلهية لا بد منها ولا غنى عنها، في بقاء الحياة، وفي توفير السعادة، والراحة فيها، وفي التمكين من التكامل، والتنامي وتحاشي الهبوط والسقوط. فتبارك الله أحسن الخالقين.

**من حديث المفضل عن الصادق ×:**

ويحسن هنا إيراد بعض فقرات الحديث الذي رواه المفضل عن الإمام الصادق «عليه السلام» حيث نقرأ ما يلي:

«فكر يا مفضل في مقادير النهار والليل كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق، فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد إلى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك.

أفرأيت لو كان النهار يكون مقداره مائة ساعة، أو مائتي ساعة، ألم يكن في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان ونبات؟!

أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة، ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة، وكان ذلك سيهلكها أجمع، ويؤديها إلى التلف.

وأما النبات فكان يطول عليه حر النهار، ووهج الشمس، حتى يجف ويحترق، وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش حتى تموت جوعاً، وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى يعفن ويفسد، كالذي تراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس.

اعتبر بهذا الحر والبرد كيف يتعاوران العالم، ويتصرفان هذا التصرف من الزيادة والنقصان والإعتدال لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما فيهما من المصالح.

ثم هما بعد دباغ الأبدان التي عليها بقاؤها، وفيها صلاحها، فإنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت، وأَخْوَتْ، وانتكثت.

فكر في دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل، فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد

منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها، كما أن أحدكم لو خرج من حمام حار إلى موضع البرودة لضره ذلك وأسقم بدنه.

فلم جعل الله عز وجل هذا الرَّسْلَ في الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة؟!

ولم جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضر المفاجأة لولا التدبير في ذلك؟!

فإن زعم زاعم أن هذا الترسل في دخول الحر والبرد إنما يكون لإبطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط، سئل عن العلة في إبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها.

فإن اعتل في الإبطاء ببعد ما بين المشرقين، سئل عن العلة في ذلك، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه إلى حيث رقى من هذا القول، حتى استقر على العمد والتدبير.

لولا الحر لما كانت الثمار الجاسية المرة تنضج فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبة ويابسة، ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ هكذا، ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت، وما يرد في الأرض للبذر.

أفلا ترى ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة؟! وكلاهما مع غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضها، وفي ذلك عبرة لمن فكر، ودلالة على أنه من تدبير الحكيم في مصلحة العالم وما فيه.

وأنبهك يا مفضل على الريح وما فيها ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويحرض الأصحاء

وينهك المرضى، ويفسد الثمار، ويعفن البقول، ويعقب الوباء في الأبدان، والآفة في الغلات؟! ففي هذا بيان أن هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق.

وأنبئك عن الهواء بخلة أخرى، فإن الصوت أثر يؤثره اصطكاك الأجسام في الهواء، والهواء يؤديه إلى المسامع، والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم.

فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلأ العالم منه، فكان يكربهم ويفدحهم، وكانوا يحتاجون في تجديده، والاستبدال به إلى أكثر مما يحتاج إليه في تجديد القراطيس، لأن ما يلقى من الكلام أكثر مما يكتب.

فجعل الخلاق الحكيم جل قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً، يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم، ثم يمحى فيعود جديداً نقياً، ويحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع.

وحسبك بهذا النسيم المسمى «هواء» عبرة وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر من رَوْحِهِ، وفيه تطرد هذه الأصوات، فيؤدي بها من البعد البعيد، وهو الحامل لهذه الأراييح، ينقلها من موضع إلى موضع.

ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح. فكذلك الصوت، وهو القابل لهذا الحر والبرد، اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه، ومنه هذه الريح الهابة.

فالريح تروح عن الأجسام، وتزجي السحاب من موضع إلى موضع، ليعم نفعه، حتى يستكثف فيمطر، وتفضه حتى يستخف فيتفشى، وتلقح الشجر، وتسير السفن، وترخي الأطعمة، وتبرد الماء، وتشب النار، وتجفف الأشياء الندية.

وبالجملة أنه تحيي كلما في الأرض، فلولا الريح لذوى النبات، ومات الحيوان، وحمت الأشياء وفسدت[1].

**عندما تهدأ الرياح:**

**ومن جهة ثانية، فإننا لا نبالغ إذا قلنا:** إن للأصوات تأثيراتها السلبية على الإنسان، فإن لها دوراً في إبقاء الخلايا في حالة يقظة وتحفُّز، وهذا إذا استمر، فإنه يوجب ضعف تلك الخلايا بسبب إرهاقها، واستنفاد طاقتها. وصيرورتها أكثر تحسساً، وانفعالاً، ثم يؤدي إلى حالة من التشويش والاضطراب في أدائها..

وقد ينتهي الأمر بالإنسان إلى حالة من التشنج، والاضطراب النفسي الذي ينتج عنه انفعالات، غير منسجمة، ولا منتظمة أيضاً..

وينتهي الأمر إلى إحدى حالتين، فإما أن تخمد تلك الخلايا، وتفقد قدرتها على الاستجابة، وتعجز عن التمييز والتصرف الصحيح، أو ينعكس ذلك ويتحول إلى أزمة نفسية مستعصية للشخص نفسه، لشعوره بهذا

(1) راجع: بحار الأنوار ج3 ص118 ـ 120 والتوحيد للمفضل بن عمر الجعفي ص86 ـ 90.

الاختلال، وإصابته بالاحباط، والشعور بالفشل، وعدم التفاعل الإيجابي مع كل ما يحيط به أو يواجهه. ثم الخوف، الذي ينتهي به إلى التشاؤم، والسوداوية، وهو يحاول التعويض عن فشله هذا بالمبالغة التي تصل إلى حد الشذوذ والانحراف..

**من أجل ذلك نقول:**

إن الخلايا السامعة لدى هذا الإنسان تحتاج إلى الخلود إلى الراحة، والهدوء والنوم بعيداً عن الأنوار، وعن الأصوات وعن كل ما يوجب قلقاً، أو ما يكون محفزاً لتلك الخلايا..

ولأجل ذلك كان النوم في النصف الأول من الليل، أي في ساعة سجوّ الليل، وانبساط الظلمة، وهدوء الأصوات، هو الأفضل والأمثل للجسم، وهو الغذاء الأتم والأنفع والأوفى له..

**العبادة في الثلث الأخير:**

عن الإمام الرضا «عليه السلام»: إن النوم سلطان الدماغ وقوام الجسد وقوته[1].

فلأجل حصول الجسم، وخلاياه على اختلاف أنواعها على ما تحتاج إليه من راحة وغذاء، ولأجل أن الجسم يكون في أحسن حالاته بعد الاستيقاظ من النوم في خصوص هذه الساعات، ساعات السجوّ، فقد

(1) راجع: بحار الأنوار ج59 ص316 ومستدرك سفينة البحار ج10 ص196 وميزان الحكمة ج4 ص3404 وحياة الإمام الرضا للقرشي ج1 ص217.

اختار التشريع الإلهي للإنسان المؤمن أن يمارس التغذية الروحية، ويرسخ علاقته بربه من خلال العبادة والدعاء، والتهجد، والتبتل بالليل، ولاسيما في النصف الثاني منه، أو في ثلثه الأخير، فإن الاتصال بالله في هذه الساعات له تأثير كبير على روح الإنسان، ودور قوي في صياغة مشاعره الحميمية، وفي خشوع قلبه، وصقل نفسه في عبادات شرعها الله تعالى له. كصلاة الليل، ثم صلوات الشفع والوتر، وصلاة الفجر، وما يقرأه من أدعية، وما يتلوه من آيات وسور قرآنية، بالإضافة إلى الكثير من الأوراد التي أرشده إليها، وإلى ما فيها من مثوبات وعوائد، وقربات وفوائد..

فالثلث الأخير من الليل ساعة يقظة، وجد وجهد وتعب، وعبادة، وتبتل، وابتهال. وهي من أهم نعم الله تعالى على الإنسان المؤمن، فعليه أن يعرف قدرها.

**بين الطلوعين:**

أما الساعات التي تلي هذا الثلث الأخير من الليل، وهي ساعة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإن الله سبحانه حذَّر الإنسان من الاستسلام للراحة وللنوم فيها، لأن رزقه مرهون بقيامها، لأنها الساعة التي تُقسم فيها أرزاق العباد، فمن نام فيها نام عن رزقه[1].

(1) راجع: من لا يحضره الفقيه ج1 ص319 ح1454 و (ط جماعة المدرسين) ج1 ص503 وتهذيب الأحكام ج2 ص139 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج6 ص497 و (الإسلامية) ج4 ص1064 وبحار الأنوار ج83 ص130 ومكارم

وهناك ساعة أخرى يوجب النوم فيها الفقر كما ورد في الروايات، وهي ساعة ما بين المغرب والعشاء[1]، أي إلى أن يغيب الشفق، وهو الحمرة التي في جهة المغرب.. كما أن من نام عن صلاة العشاء، فعليه أن يصبح صائماً.

وجَعْلُ الرزق مرهوناً باليقظة في هاتين الساعتين، اللتين لا تصلحان لطلب الدنيا، بل هما للعبادة أصلح، وبها أليق وأنسب، يُعدّ حافزاً طبيعياً يضاف إلى الحافز الاعتقادي، والأخلاقي، والإيماني.

**الليل والعبادة:**

وإذا كان المطلوب من الخلوة هو التفرغ للابتهال والانقطاع إلى الله سبحانه، فإن الليل هو أفضل الأوقات لذلك، لأن الظلمة المهيمنة فيه تمنع الباصرة من استقبال الصور، فإنها إذا وفدت إلى الذهن سوف تشغل حيزاً منه، فإذا منعته من استقبال هذه الصور المتنوعة، فإنه يصبح أقدر على

---

الأخلاق للطبرسي ص305 وهداية الأمة للحر العاملي ج3 ص195 وتحفة السنية (مخطوط) للجزائري ص318 ومستدرك سفينة البحار ج8 ص524 والبرهان (تفسير) ج5 ص156 ونور الثقلين ج5 ص121 وكنز الدقائق ج12 ص409 ومجمع البحرين ج6 ص137 .

(1) راجع: الخصال للصدوق ص505 وروضة الواعظين ص455 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج15 ص347 و (الإسلامية) ج11 ص276 وبحار الأنوار ج73 ص184 و 314 ومستدرك الوسائل ج5 ص110 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج3 ص196 .

الاستغراق في الانقطاع إليه تعالى، والإخلاص في دعائه..

ولذلك ترى الداعي في الأوقات المشحونة بالضوء يحاول أن يصرف ذهنه عما يحيط به، وأن يحجب الضوء عن عينيه، ولو بإغماضهما، أو بالتركيز على النظر إلى نقطة بعينها، ولتكون صلته بالله تعالى عن طريق الاستحضار الوجداني من دون أن تزاحمه أية صورة أخرى لأي موجود آخر، قريب منه أو بعيد يمكن أن يقع نظره عليه.

كما أن هذه الخلوة الليلية تعطي هذا الداعي الفرصة لإفراغ ذهنه عن الأصوات، التي تطرق سمعه دون استئذان. وتضع حاجزاً بينه وبين دوافعها.

فالليل وظلمته وهدوؤه هو الأفضل لإنشاء الصلة بالله تعالى، لأنه الأكثر صفاء ونقاء، والأبعد عن مشاركة أي أمر آخر يشغل الإنسان عن ربه، ويشغل حيزاً في ذهنه، ويقلل من درجة إخلاص العبادة له تعالى..

وفي الليل تقل المعاصي، لأن النوم يملأ قسماً منه ولا مجال عادة لمعصية الله حال النوم، ولأن المؤمنين ينصرفون إلى عبادة الله في الثلث الأخير منه، بعد أن يكونوا قد قضوا قسماً منه مع عوائلهم، حيث يقل ابتلائهم بكثير من المعاصي النهارية وغيرها.

وغير المؤمنين أيضاً تبقى مجالات المعاصي محدودة أمامهم في الليل أيضاً. وإن كان لليل شياطينه وللنهار شياطينه، ولكن مجالات شياطين النهار تبقى أوسع، ووسائلهم وحبائلهم أكثر وأوفر..

على أن ظلمة الليل لها رهبتها، التي يشعرمعها هذا الإنسان بدرجة من الضعف، والترقب والخوف من المجهول، وما يمكن أن تخفيه الظلمة له

من مفاجآت. الأمر الذي قد يجعل الكثيرين يتهيبون الإقدام على كثير من الأمور، وتبقى قدرتهم على التحرك محدودة. كما أن الكثيرين قد يضطرهم خوفهم إلى التفكير باللجوء إلى الله سبحانه، ليدفع عنهم ما يجهلونه ويصونهم مما يخشونه..

**ما بعد طلوع الشمس:**

أما فترة ما بعد طلوع الشمس، فقد روي عن الإمام زين العابدين «عليه السلام»: أنه كان يصلي صلاة الغداة (وهي الصبح)، ثم يعقب في مصلاه حتى تطلع الشمس، ثم يقوم فيصلي صلاةً طويلة. ثم يرقد رقدة. ثم يستيقظ، فيدعو بالسواك، فيستن[1].

ولعل المراد بالصلاة الطويلة: هي الصلاة التي يقرأ فيها بعد الحمد سوراً طوالاً كسورة البقرة، وآل عمران، أو يطيل ركوعها وسجودها بالأدعية والتسبيحات الكثيرة..

**ويبدو**: أن رقدته بعد صلاته الطويلة توافق أو تقترب من ساعة القيلولة التي يستحب الرقود فيها لفترة يسيرة..

**وقد ظهر هذا النص**: إذا جمعناه مع النصوص التي تتحدث عن استحباب نوم القيلولة و النصوص التي تذكر ما يستحب للإنسان أن يقوم به حين خروجه إلى السوق، أو إلى غيره من مجالات العمل أن هناك سياسة إلهية تهدف إلى:

---

(1) راجع: بحار الأنوار ج73 ص186 عن دعوات الراوندي.

**1** ـ تقليص فترة العمل في النهار.

**2** ـ محاصرة هذه الفترة القصيرة المتبقية بأنواع كثيرة من العبادات، التي تؤثر في صيانة روح الإنسان من الإنزلاق إلى حمأة المغريات، ثم تحصينه من هجمات شياطين الإنس والجن، وهي بمثابة درع يحميه وسلاح يقويه في مواجهة دواعي الغرائز، والأطماع، والشهوات، ويحميه من الانبهار بالأشكال والألوان، ومن التأثر بالبهرجات والتزيينات الدنيوية، وما يسيل له اللعاب في حمأة التعامل، وفي بحبوحة المغالبة، وبذل الجهد للتأثير على المنافسين بمختلف أنواع المؤثرات، ومنها الغش والتلبيس على الآخر بأنواع من الكلام المعسول، وسائر أنواع الاحتيال والمكر، وستر ما ينبغي إظهاره.

فأراد تعالى للإنسان أن يمكنه من أن يهيمن على غرائزه، وشهواته، ويحد من اندفاعه نحو تلبية رغباته، والإستجابة لأهوائه..

فلا يكاد يفسح له المجال للانطلاق في نشاطه النهاري حتى يدعوه للخروج من هذا المحيط الموبوء، ويريحه من ضغوطه، ويخلصه من إغراءاته، ويأمر بأن يخلد للراحة في ساعة القيلولة، ليستعيد توازنه وفكره وعقله وسائر قواه الجسدية والتقنية والذهنية، قبل أن يسقطه ضعفه في براثن الغواية.

هذا هو السبب في هذه التوجيهات الرامية إلى تقوية دواعي الإيمان لديه، من خلال إيقاظ روحه، وترسيخ يقينه، وشحنه بالمعاني الروحية، وإيقاظ فطرته، وإحياء ضميره، وإنعاش وجدانه.

**الغطاء و البعد عن الضوضاء:**

**1** ـ ولأن الإنسان يحتاج إلى النوم التام، والطبيعي، فإنه هو الذي يعيد

للجسم ما فقده، تماماً كما يعوض الغذاء البدن كل ما يفقده بسبب الجهد والتعب، فإن النوم التام نوع من أنواع الغذاء أيضاً. ولكن النوم التام يحتاج إلى الظلمة، لأن النور يمنع النوم التام من التحقق. ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾ أي غطى، لأن التسجية هي التغطية. يقال للميت: مسجى. أي مغطى بثوب.

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا**﴾[1].

**فقد قررت هذه الآية المباركة أمرين:**

**أولهما**: أن الليل لباس، لأنه يستر الإنسان كما يستر اللباس البدن، ستراً مباشراً، لا يسمح بوجود فجوات ذات أهمية، يمكن أن يتسرب الضوء منها، وينتشر فيها وتحتها.

وهذا بالذات هو ما يحتاجه الإنسان حال النوم، ولذلك ترى النائم حتى حين يريد أن ينام في النهار، يحاول أن يصطنع لنفسه ظلمة، ومهما كانت ضعيفة، فيحاول أن يستفيد من ستائر الأبواب والنوافذ، ومن الأغطية ليغمر بها جسده أو يغطي رأسه، أو عينيه على أقل تقدير، فإن لم يجد، فإنه يحاول أن يستفيد ولو من ذراعه، أو من الإنطواء على نفسه، وأن يصرف وجهه عن جهة الضوء، ولو بأن يدنيه من الأرض..

وحاجته الطبيعية هي التي تدفعه إلى ذلك بصورة عفوية، لأن أجهزة جسمه لا تنام نوماً كافياً، ولا وافياً إلا في الظلمة، ولا يستعيض الجسم ما

(1) الآية 47 من سورة الفرقان.

فقده إلا إذا نام..

**الثاني**: إن الإنسان يحتاج إلى الهدوء التام، والابتعاد عن الأصوات. ولأجل ذلك يختار لنومه المواضع البعيدة عن الضوضاء قدر الإمكان. كما أنه يحاول أن يبتعد عن عصف الرياح، فيغطي أذنيه بثوبه، أو بكفيه إن استطاع.

ومما يؤكد هذه الحاجة إلى الهدوء أن الأصوات ترهق طائفة رئيسية من الخلايا، واستمرار الضجيج يؤدي إلى الإضرار بها، وقد يؤدي بالإنسان إلى أن يصبح متشائماً، بل ومنحرفاً أخلاقياً.. وربما أدى به إلى اختلالات وعقد نفسية، وغير ذلك.

**وقد تقدم**: أن ظلمة الليل تجعل الإنسان عاجزاً عن استعمال الباصرة بصورة فاعلة، وحاسمة في كثير من الأمور، ويتحول إلى الاستفادة من حواس أخرى، مثل حاسة السمع لتصبح هي الأكثر فعالية في حالات هيمنة الظلام، وتشاركها بصورة أقل حاسة اللمس وبعض الحواس الأخرى أيضاً.

وقد تصبح حاسة السمع أيضاً غير ذات جدوى وفعالية حين تقوى حركة الرياح أيضاً. وبذلك يفقد الإنسان الشعور بالسكينة والطمأنينة، ويصبح متحفزاً أو متوتراً، لا يقر له قرار، ولا يهنأ له عيش، لأنه لا يعرف ما يخبئ له هذا الظلام الدامس، ويصبح نومه أرقاً، وسكينته قلقاً.

ولعل أسعد الساعات وأكثرها طمأنينة، وأهنأها له هي ساعات سجو الليل وهدوء الرياح فيه، حيث يستطيع أن ينام ملء جفونه، لأنه مطمئن إلى أن سامعته قادرة على رصد المحيط، وتستطيع أن تنذره بأي طارئ إن لزم الأمر.

**2** ـ على أن الإنسان، وكذلك سائر المخلوقات الذي يحاول إظهار درجات عالية من الحيوية والنشاط في النهار، يحتاج إلى الاسترخاء والركود، ويحب أن يتبذل في لباسه، في أوقات خلوته، بعيداً عن أنظار النظراء والأنداد، لأنه لا يحب أن يريهم الوجه الضعيف في شخصيته، إنه يحب أن يستلقي، وأن يتخذ أوضاعاً في جلوسه، أو في قيامه أو في حركاته لا يحب أن يراها الآخرون، لأنها تخل بالنظرة التي يريد لهم أن يحتفظوا بها عنه..

أما حالات النوم، فهي الأكثر إحراجاً بالنسبة إليه، لإدراكه أنه يفقد كل قدرة على السيطرة، ويكون في أضعف حالاته، لأنها حالات استسلام وخضوع تام لإرادة الآخرين، ولعله يصدر منه، أو يرون منه ما يهدم عزته، وينقص قدره.

ومن طرائف ما يذكر هنا، وإن كنا لا نستبعد أن تكون قصة موضوعة ـ لسبب أو لآخر ـ: أن جارية اشتريت لأحد خلفاء بني العباس، وكانوا قد بالغوا في إطراء أدبها، وعقلها، وحميد صفاتها، فلما خلى بها وضع رأسه في حجرها، واستسلم للنوم، فلما استيقظ رأى أنه ينام على وسادة، ولم يجد الجارية، فاستشاط غضباً، وصمم على معاقبتها، على هذه الإهانة. ثم أحضرها وسألها عن سبب صنيعها هذا، فأخبرته أن مؤدبتها أمرتها أن لا تجلس في محضر إنسان نائم؛ فأدرك مغزى هذه الوصية، وأن المقصود هو أن لا ترى ولا تسمع منه ما يحب هو التستر عليه، فزاده ذلك إعجاباً بها وعفا عنها.

نعم، إن النوم سبات واستسلام، والنائم كالميت، لا يعرف ما يصدر منه، ولا يحس بما يجري حوله، ولا يرى نفسه كيف يتقلب ويتحرك، وربما

تفوه بأمور، أو كشف عن مستور كان ينبغي أن يبقى في ضمير الغيب، وطي الكتمان.

وربما وجهت إليه أسئلة، فيجيب عنها من دون وعي، ثم هو سوف لا يتذكر أجوبته، ولا يدرك طبيعة تصرفاته في حال سباته.

على أن نفس شعور الآخرين بعدم حصانة النائم منهم، وعجزه عن الدفع عن نفسه، وعن إدراك ما يكون منهم تجاهه، وفقدانه القدرة على التواصل مع المحيط الذي هو فيه، والتعامل معه، فضلاً عن أن يكون قادراً على السيطرة عليه ـ إن ذلك ـ من الأمور التي تحزنه، ولا تروق له.

**3** ـ وربما كانت سائر الموجودات أيضاً، كالنبات والحجر، والشجر والثمر، وسواها تحتاج في بقائها، ونموها، وحيويتها إلى هذه السكينة وإلى السجوّ والهدوء التام، كما احتاجت إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى الرياح، وإلى النور، والظلمة، والحرارة، والبرودة، وإلى عناصر كثيرة تحملها إليها كل هذه الأمور التي ذكرناها، وسواها مما غفلنا، وقد نغفل عنه، أو نجهله.

وقد أصبحنا نعرف أن الثمار تفرز مواداً وسموماً في الليل وظلامه، تحتاج إلى إفرازها والتخلص منها، ولا تفرزها بالنهار، فتبارك الله خالق الليل والنهار..

# الفصل الرابع:

## (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى..)

**بداية:**

كان القسم بالضحى، وبالليل إذا سجى توطئة لقوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾. فما هو المبرر للحديث عن الوداع والقلى من الله تعالى لنبيه «صلى الله عليه وآله». مع التأكيد بالقسم الإلهي المتكرر، ثم تعقيب هذا النفي المؤكد بوعود ربانية، وبأمور أخرى، سوف نطَّلع على ما يمكن الإطلاع عليه منها إن شاء الله تعالى؟!

**وقد أجيب عن هذا السؤال**: بأن المبرر لهذا كله هو سبب نزول هذه السورة المباركة..

وقد رجعنا إلى الروايات التي تذكر أسباب النزول، فوجدنا أنها ذكرت أسباباً مختلفة ومتباينة، تحتاج إلى بحث وتمحيص. نذكر منها الروايات التالية:

**سبب نزول السورة:**

**روي في سبب نزول هذه السورة ما يلي:**

**1 ـ** عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾:

«ذلك أن جبرئيل أبطأ على رسول الله «صلى الله عليه وآله». وأنه كانت

أول سورة نزلت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

ثم أبطأ عليه، فقالت خديجة: لعل ربك قد تركك، فلا يرسل إليك!!

فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وروي نحوه عن ابن شداد وعروة. وفي هاتين الروايتين: أنه «صلى الله عليه وآله» جزع جزعاً شديداً. وأنها رحمها الله قالت له: أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك[1].

**2 ـ** عن أم حفص، عن أمها، وكانت خادم رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أن جرواً دخل بيت النبي «صلى الله عليه وآله»، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!. جبريل لا يأتيني!!

**ثم ذكرت الرواية:** أنه «صلى الله عليه وآله» أخذ برده وخرج، فكنست تلك المرأة البيت، فوجدت الكلب ميتاً تحت السرير.

---

(1) راجع رواية ابن شداد في: الدر المنثور ج8 ص540 عن ابن جرير، وتفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ.) ج8 ص3799 وتفسير الطبري ج30 ص231 و 232.

ورواية عروة في الدر المنثور ج8 ص540 و 541 عن ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وتفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ.) ج8 ص3799 و 3800 وتفسير الطبري ج30 ص231 و 232.

ورواية أبي الجارود في تفسير القمي ج2 ص428 والبرهان للبحراني (تفسير) ج8 ص311 وأسباب النزول ص302 وكنز الدقائق ج14 ص316.

ثم جاء «صلى الله عليه وآله»: «ترعد لحيته.. وكان إذا أنزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله عليه: والضحى[1].

**3** ـ عن ابن زيد: السبب فيه كون جرو في بيته «صلى الله عليه وآله» للحسن والحسين، فلما نزل جبريل «عليه السلام» عاتبه رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة؟![2].

**4** ـ عن جندب البجلي، قال: اشتكى النبي «صلى الله عليه وآله»، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم تره[3] قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾.

**وفي نص آخر**: فلم يقم ليلة أو ليلتين[4].

---

(1) الدر المنثور ج1 ص 541و542 عن ابن أبي شيبة، والطبراني، وابن مردويه، والإصابة ج4 ص294 وأسباب النزول ص302 وراجع: الإستيعاب (بهامش الإصابة) ج4 ص292 و 293 والسيرة النبوية لابن كثير ج4 ص654 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

(2) تفسير الرازي ج31 ص210 وراجع: الجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

(3) لعل الصحيح: نره.

(4) الدر المنثور (ط سنة 1414هـ) ج8 ص539 و 540 عن أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي وأبي نعيم معاً في الدلائل، وتفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ) ج8 ص3799 وفي هامشه عن مسند أحمد ج4 ص312 و 413 وفتح الباري،

**5** ـ وعن جندب: أبطأ جبريل عن النبي«صلى الله عليه وآله»، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد. فأنزل الله: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾[1].

**وفي نص آخر**: احتبس عنه أياماً، فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه، فنزلت[2].

**وفي نص آخر**: فقالت: بعض بنات عمه: ما أرى صاحبك إلا قد قلاك، فنزلت إلخ..[3].

**وحسب نص آخر**: «قالت امرأة من قريش: ما أرى شيطانك إلا

---

تفسير سورة الضحى ج8 ص710 وكتاب التهجد 3/ 8 وكتاب فضائل القرآن 9/ 3 ومسلم في كتاب الجهاد 3/ 1421 و 1422 وعارضة الأحوذي ج12 ص246 و247 والسنن الكبرى للنسائي كما في تحفة الإشراف للمزي 2/ 439 وتفسير الطبري 30/ 231 وعن ابن أبي حاتم والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

(1) الدر المنثور ج8 ص540 عن الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، وتفسير الرازي ج31 ص209 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63 وتفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ.) ج8 ص3799 وعقود المرجان ج5 ص439.

(2) كنز الدقائق ج14 ص317 وجوامع الجامع ص544 وتفسير القرآن العظيم ج8 ص3800.

(3) الدر المنثور ج8 ص540 عن الطبراني.

ودعك»[1].

**6** ـ عن جندب: رمي رسول الله «صلى الله عليه وآله» بحجر في أصبعه. فقال:

**هـل أنـت إلا إصـبع دميـت وفـي سـبيل الله مـا لقـيت**

فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يوحى إليه. فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فنزلت: والضحى..[2].

**7** ـ وقالوا ـ والنص للرازي ـ: قال أكثر المفسرين: إن اليهود سألوا النبي «صلى الله عليه وآله» عن ذي القرنين، وعن أهل الكهف، وعن الروح، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي اثنا عشر يوماً، أو أربعين يوماً، فاغتم لشماتة الأعداء. فنزلت السورة تسلية لقلبه[3].

**8** ـ وقيل: إن المسلمين قالوا: ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله!!

قال: وكيف ينزل عليّ الوحي، وأنتم لا تنقون براجمكم، ولا تقلمون

---

(1) أسباب النزول ص301 عن البخاري.

(2) مجمع البيان (ط سنة 1418هـ. ق) ج10 ص302 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63 وتفسير الرازي ج31 ص210 والدر المنثور ج8 ص540 عن الترمذي، وصححه، وابن أبي حاتم، واللفظ له، وتفسير القرآن العظيم ج8 ص3799.

(3) راجع: عقود المرجان ج5 ص439 ومجمع البيان ج10 ص302 وتفسير الرازي ج31 ص210 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

أظفاركم؟![1].

**9** ـ عن زيد بن أرقم: لما نزلت: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾، قيل لامرأة أبي لهب: إن محمداً قد هجاك. فأتت رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد، علام تهجوني؟!

قال: إني والله ما هجوتك. ما هجاك إلا الله.

فقالت: هل رأيتني أحمل حطباً، أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد؟!

ثم انطلقت. فمكث رسول الله «صلى الله عليه وآله» أياماً لا ينزل عليه.

فأتته، فقالت: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك. أو (ما أرى شيطانك إلا تركك).

فأنزل الله: ﴿**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾[2].

**10** ـ عن عبد الله بن عباس، قال: لما نزل على رسول الله القرآن أبطأ عنه جبرئيل أياماً، فَعُيِّر بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه.

---

(1) راجع: مجمع البيان ج10 ص302 وكنز الدقائق ج14 ص317 وتفسير الرازي ج31 ص210 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

(2) الدر المنثور ج8 ص541 عن ابن جرير، وابن مردويه، من طريق العوفي عن ابن عباس، وعقود المرجان ج5 ص439 وراجع: تفسير الرازي ج31 ص209 وراجع: مجمع البيان (ط سنة 1418هـ. ق) ج10 ص302 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

فأنزل الله: ﴿**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**﴾. أي أقبل. ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾[1].

وقال السدي: أبطأ عليه أربعين ليلة، فشكا ذلك إلى خديجة، فقالت: لعل ربك نسيك، أو قلاك!![2].

وروي عن الحسن: أبطأ على الرسول في الوحي، فقال لخديجة: «إن ربي ودعني وقلاني» يشكو إليها.

فقالت: كلا والذي بعثك بالحق، ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك، فنزل: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾[3].

**ونقول:**

**إن من المعلوم**: أن سورة الضحى قد نزلت عليه «صلى الله عليه وآله» في أوائل البعثة، أو كما روي عن ابن عباس[4]، وكما دلت عليه الرواية المتقدمة برقم [1] وغيرها.

ولا يمكن قبول الأسباب التي ذكرت في الروايات المتقدمة في شأن نزولها لأسباب عديدة نذكر منها ما يلي:

---

(1) الدر المنثور ج8 ص541 عن ابن جرير، وابن مردويه، وعن ابن جرير نحوه من مرسل قتادة والضحاك.

(2) تفسير الرازي ج31 ص209.

(3) تفسير الرازي ج31 ص209.

(4) راجع: الدر المنثور ج8 ص539 عن ابن الضريس، والنحاس، وابن مردوديه والبيهقي.

**التناقض والإختلاف:**

إن هذه الروايات فيها الكثير من التناقض والاختلاف، وهذا يدل على عدم صحة طائفة منها، فلاحظ مثلاً:

**ألف**: التناقض بينها في مدة انقطاع الوحي، فقال ابن جريج: إن مدة انقطاعه هي اثنا عشر يوماً.

**وقال الكلبي**: كانت خمسة عشر يوماً.

**وقال ابن عباس**: خمسة وعشرين.

**وقال السدي ومقاتل**: انقطع أربعين يوماً.

**وقيل**: ليلتان أو ثلاث.

**وقيل**: أربعة أيام[1].

**ويلاحظ**: أن الترديد قد وقع حتى في رواية الراوي الواحد، كما في الترديد بين ليلتين أو ثلاث؟! وبين اثني عشر يوماً، وأربعين يوماً؟!

**ب**: الإختلاف في أن الذي اعترض على الرسول، هل هو خديجة «سلام الله عليها»؟! أو هي أم جميل حمالة الحطب، امرأة أبي لهب؟!.. أو هم اليهود، أو المسلمون. أو المشركون؟!. أو.. أو..

**بل تقدم**: أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي ظن أن الله قد ودعه وقلاه!

---

(1) راجع: الروايات المتقدمة، وتفسير الرازي ج31 ص210 وتفسير مجمع البيان (ط سنة 1418هـ.) ج10 ص301 و 302 والجامع لأحكام القرآن ج20 ص63.

ج: وقد اختلفت أيضاً في سبب انقطاع الوحي، هل السبب فيه: أن الناس كانوا لا يقلِّمون أظافرهم، ولا ينقُّون براجمهم، وهي العقد، التي في ظهور الأصابع، حيث كان الوسخ يجتمع فيها؟!

أم أن السبب هو أنه «صلى الله عليه وآله» وعد اليهود بأن يجيبهم على أسئلتهم، ولم يقل: إن شاء الله؟!

أو أن الوحي قد انقطع عنه «صلى الله عليه وآله» بلا سبب موجب؟!

أو أن السبب هو دخول جرو الكلب تحت سريره «صلى الله عليه وآله»، وموته هناك؟!

أو أن السبب هو أن الحجر أصاب إصبعه «صلى الله عليه وآله» فدميت، فقال «صلى الله عليه وآله» ما قال من الشعر؟!

فضلاً عن التناقض الظاهر في رواية الراوي الواحد كروايات عروة، وروايات جندب البجلي، إلى غير ذلك مما يمكن استظهاره بالنظر والتأمل والتدبر.

**أسانيد الروايات:**

ثم إن أسانيد هذه الروايات أيضاً غير قابلة للاعتماد.. ويكفي أن نذكر أن القسم الأكبر منها لم يروه شيعة أهل البيت، بل رواه غيرهم، عن أناس يطعن الشيعة في وثاقتهم واستقامتهم. وكمثال على ذلك نذكر:

**1** ـ أن أبا الجارود راوي الرواية الأولى ـ واسمه زياد بن المنذر ـ لا يمكن الاعتماد على روايته، فقد روي: أن الصادق، أو الإمام الباقر «عليه

السلام» قد لعنه[1].

**وقال محمد بن سنان:** لم يمت أبو الجارود حتى شرب المسكر، وتولى الكافرين [2].

**وروي:** أن أبا عبد الله الصادق «عليه السلام» ذكر كثير النوا، وسالم بن أبي حفصة، وأبا الجارود، فقال: كذابون، مكذبون، كفار، عليهم لعنة الله إلخ..[3].

**2 ـ** بالنسبة لرواية عبد الله بن شداد، وعروة بن الزبير عن أن السبب في نزول السورة، هو قول خديجة لرسول الله «صلى الله عليه وآله»: «إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك».

**فقد قال ابن كثير:** «إنه حديث مرسل من هذين الوجهين. ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً. أو قالته على وجه التأسف والتحزن»[4].

على أننا لا نثق بعروة بن الزبير الذي حارب علياً «عليه السلام» هو وأبوه، وأخوه، يوم الجمل.. وقُتِل فيها أبوه وهو منهزم..

وقد ذكرنا بعض ما يرتبط به في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم

---

(1) راجع: رجال الكشي ص229 والفهرست لابن النديم ص226 وقاموس الرجال ج4 ص521 وج11 ص249 عنه، وعن النوبختي.

(2) قاموس الرجال ج4 ص521 والفهرست لابن النديم ص226.

(3) الكشي 229 و230.

(4) تفسير القرآن العظيم (ط سنة1419هـ.) ج8 ص3800.

«صلى الله عليه وآله» حين الحديث عن روايات بدء الوحي. ويمكن مراجعة قاموس الرجال للمحقق التستري للوقوف على بعض أحواله..

**3** ـ وخولة خادمة رسول الله، وجندب البجلي.. لم نجد في ترجمتهما ما يجدي في التعرف على حالهما. ونحن نكتفي بما ذكرناه، فإن ما يرد على مضمون هذه الروايات كاف في سقوطها، فإلى ما يلي من مطالب.

## سورة الضحى متى نزلت؟!:

أما ما زعمته إحدى الروايات المتقدمة، من أن سورة الضحى قد نزلت بعد سورة إقرأ، التي هي أول ما نزل على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فهو غير ظاهر الوجه..

**أولاً**: هناك من يقول: إن قول أكثر المفسرين: إن سورة الفاتحة هي أولاً ما نزل كما سنرى، وقيل: إن سورة المدثر هي أول ما نزل، وقيل: سورة اقرأ، وهذا يعني أن السورة الثانية والثالثة هي إحدى هذه السور، لا سورة الضحى.

**ثانياً**: إن المواجهة بين المشركين وبين رسول الله قد حصلت بعد إنذار العشيرة، أي بعد ثلاث سنوات من البعثة، فكيف يكون قول المشركين، أو أم جميل، أو غيرها: «إن محمداً ودعه ربه وقلاه» قد حصل بعد نزول سورة إقرأ بيوم أو يومين، أو ثلاثة، أو خمسة وعشرين، أو أربعين يوماً؟!

وكيف نزلت سورة المسد في ذم حمالة الحطب وزوجها، في نفس هذه الفترة؟! وكيف يمكن الجمع بين هذا وبين نزول سورة الضحى بعد نزول سورة العلق ـ التي هي أول سورة نزلت ـ بأيام يسيرة، تبدأ من يوم ويومين، وتنتهي إلى أربعين يوماً؟!

**ثالثا**: إنهم يقولون: إن سورة: «الضحى قد نزلت بعد عشر سور»، وهي كما في رواية ابن عباس ـ: إقرأ، القلم. المزمل. المدثر. المسد. التكوير. الأعلى. الليل. الفجر.. الضحى[1].

**يضاف إليها**: فاتحة الكتاب. فقد ورد أيضاً أنها أول ما نزل، وقالوا: إن هذا هو قول أكثر المفسرين[2].

**وفي رواية جابر بن زيد**: «أول ما أنزل الله من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ثم ن والقلم، ثم يا أيها المزمل. ثم يا أيها المدثر. ثم الفاتحة. ثم تبت يدا أبي لهب وتب. ثم إذا الشمس كورت. ثم سبح اسم ربك الأعلى. ثم والليل إذا يغشى، ثم والفجر، ثم والضحى»[3].

وقال البرهان الجعبري في قصيدته:

**إقـــرأ، ونـــونُ، مـــزملُ، مـــدثـر والحمـد تبـت كـورت الأعلى علا**

**ليل، وفجر والضحى، شرح وعصر العـاديات وكـوثر ألهـاكم تـلا**[4]

**رابعاً**: ورد في بعض الروايات عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» على فاطمة «عليها السلام» وهي تطحن بالرحى

---

(1) الإتقان (ط سنة 1363هـ.ش) ج1 ص42.

(2) راجع: الإتقان ج1 ص46 و 94.

(3) الإتقان ج1 ص96.

(1) المصدر السابق ج1 ص97 و 98 و (ط دار الفكر سنة 1416هـ. ق) ج1 ص78.

وعليها كساء من أَجِلَّة الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: يا فاطمة، تعجلي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غداً، فأنزل الله ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾(1).

**من أجل ذلك نقول:**

**ألف**: إن هذا يشير إلى أن هذه السورة قد نزلت بعد زواج الزهراء «عليها السلام»، وبعد ولادة بعض أبنائها «عليها وعليهم السلام» في المدينة، مع أنه قد تقدم التصريح بأنها نزلت في مكة، في أول البعثة. ولم تكن فاطمة «عليها السلام» قد ولدت، لأن ولادتها «عليها السلام» كانت في السنة الخامسة من البعثة. كما ذكرناه في المجلد الثاني من كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» فراجع.

**ب**: إن هذه الرواية نفسها قد رويت عن الإمام الصادق «عليه السلام»، وفيها: أنه «صلى الله عليه وآله» لما رآها قال: يا بنتاه، تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقد أنزل الله ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾(1).

---

(1) كنز الدقائق ج14 ص319 و318 وتأويل الآيات الباهرة ج2 ص810 و811 ومناقب آل أبي طالب ج3 ص342 عن تفسير الثعبلي، وعن تفسير القشيري، والدر المنثور ج8 ص543 عن العسكري في المواعظ، وابن مردويه، وابن النجار، والبرهان (تفسير) ج8 ص310 و311 و312 عن تأويل الآيات، وعن تفسير الثعلبي.

(1) كنز الدقائق ج14 ص318 ومجمع البيان (ط سنة 1418هـ) ج10 ص303.

**فظاهر هذا التعبير**: أنه «صلى الله عليه وآله» قد أخبرها بنزول الآية عليه، ولم يحدد زمان نزولها، فلعلها نزلت قبل سنة، ولعلها نزلت قبل عشر سنوات أو أكثر أو أقل.

ج: إن من المحتمل أن تكون هذه الآية أو السورة قد نزلت مرتين:

**إحداهما**: في أول البعثة في مكة.

**والأخرى**: بعد الهجرة إلى المدينة، وبعد زواج الزهراء، وولادة أولادها «عليها وعليهم السلام».

**النبي.. وقول الشعر:**

**وتقدم**: **أنهم يقولون**: إن سورة الضحى قد نزلت بعد أن دميت إصبع النبي «صلى الله عليه وآله»، فقال ذلك البيت من الشعر:

**هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت**

**ونقول**:

**أولاً**: هذا لا يتوافق مع التصريح: بأنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن يقول الشعر كما صرح به القرآن بقوله: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾[1].

**ثانياً**: ثم إنهم يتخلون عن هذا، حفظاً لماء وجه بعض الكتب التي توصف بالصحة، فيقول ابن كثير: «وقول هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ثابت في الصحيحين، ولكن الغريب هاهنا جعله سبباً لتركه القيام،

(1) الآية 69 من سورة يس .

ونزول هذه السورة»!![1].

وقال معمر، عن قتادة: بلغني أن عائشه سئلت: هل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتمثل بشيء من الشعر؟!

فقالت: لا، إلا ببيت طرفة:

**ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود**

**فجعل يقول**: من لم تزود بالأخبار.

فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا.

فقال: إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي[2].

وقال سعيد بن أبي عروبة؛ عن قتادة: قيل لعائشة: هل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتمثل بشيء من الشعر؟!

قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فجعل أوله آخره، وآخره أوله.

فقال أبوبكر: ليس هكذا.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إني ـ والله ـ ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي[3].

وعن عائشة: ما جمع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً.

---

(1) تفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ) ج7 ص3799.

(2) تفسير القرآن العظيم ج7 ص2958 وتفسير الطبري ج23 ص27.

(3) تفسير القرآن العظيم (ط سنة 1419هـ) ج7 ص2958 عن ابن أبي حاتم.

**تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحققا**[1]

وقال ابن كثير: ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ أي وما هو في طبعه، فلا يحسنه، ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته. ولهذا ورد: أنه «عليه الصلاة والسلام» كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه، أو لم يتمه[2].

**ثالثاً**: لم يتضح لنا مدى صحة ما يزعمونه، من أنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن يحق له أن يتمثل بشعر قاله غيره. مع معرفة الناس بأنه يقوله على سبيل التمثل بما قاله غيره، فإن المطلوب هو أن لا يظن أحد أنه ينظم الشعر، ويؤلفه، لكي لا يدعي أنه هو الذي يؤلف القرآن..

**كما لم يتضح لنا الوجه في قولهم**: إنه «صلى الله عليه وآله» كان عاجزاً عن التفوه بالشعر الموزون حتى على سبيل التمثل به، فإن هذا يُدخِل الموضوع في نطاق الجبر الإلهي، الذي لا يصح أن يصدر منه تعالى حتى في حق نبيه الأكرم «صلى الله عليه وآله». إذ كان يكفي أن ينهى تعالى نبيه عن التفوه بالشعر، لكي يكون «صلى الله عليه وآله» أحرص الناس على الامتثال الصارم بما يأمره الله تعالى به وينهاه عنه..

**رابعاً**: إن الرواة قد رووا لنا: أنه «صلى الله عليه وآله» قد تمثل ببعض الأبيات.. وقد تقدم ذلك في الأمثلة الآنفة الذكر.

---

(1) السنن الكبرى ج7 ص43 وتفسير القرآن العظيم ج7 ص2958.

(2) تفسير القرآن العظيم ج7ص2956.

## خديجة أجَلُّ شأناً:

أما فيما يرتبط باتهام خديجة «عليها السلام» بأنها هي التي قالت للنبي «صلى الله عليه وآله»: لعل الله ودعه وقلاه، فلا ريب في بطلانه، فإن خديجة «صلوات الله وسلامه عليها» كانت أجل قدراً، وأعظم شأناً، وأنفذ بصيرة، وأرسخ يقيناً من أن يتوهم في حقها أنها تشك في دينها، أو تشك في صدق رسول الله «صلى الله عليه وآله». وقد رأت من دلائل الكرامات والمعجزات له «صلى الله عليه وآله». ما يبهر العقول، ويحير الألباب.

فلا يمكن أن نتوهم أنها قد طرحت على رسول الله «صلى الله عليه وآله» هذا السؤال عن التوديع والقلى، أو أنها أظهرت هذا الاحتمال الغريب والعجيب الذي لا يصدر عن مؤمن، فتقول له: «لعل ربك تركك»!!

فإن طرح هذا السؤال لا بد أن يسبقه تساؤل عن السبب الذي يدعو إلى هذا الترك، فهل صدر منه «صلى الله عليه وآله» ما أوجب هذا الغضب الإلهي عليه، أو ما دل على عدم أهليته لهذه المسؤولية.

ألم تكن «عليها السلام» قد لمست طيلة كل تلك السنين طهر رسول الله وصدقه، وإخلاصه لربه، وطاعته له، وتفانيه في رضاه، وشدة إقباله على عبادته في غار حراء وفي كل مكان يكون فيه، وكل لحظة من حياته، لاسيما وأنها تعلم: أن إبطاء الوحي عن النبي، لا يعني أن الله تعالى قد تركه، أو أبغضه، أو جرده من مقام النبوة!!

ثم إنه لا دليل على لزوم تواصل الوحي عليه «صلى الله عليه وآله» في كل يوم أو يومين أو ثلاثة، أو كل أسبوع، ومن الذي حدد لها أو لغيرها من

المسلمين أو المشركين أو اليهود. مقدار المدة التي يتحقق فيها التوديع والقلى من الله تعالى؟!

## النبي ﷺ هو الذي شك في الوداع والقلى!!:

وقد عقب الرازي على الرواية الأخيرة التي نسبت هذا القول إلى النبي «صلى الله عليه وآله»، وفيها: أنه «صلى الله عليه وآله» شكا إليها أن ربه ودعه وقلاه ـ عقب عليها ـ بقوله:

«..وطعن الأصوليون في هذه الرواية، وقالوا: إنه لا يليق بالرسول «صلى الله عليه وآله» أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه. بل يعلم: أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمة الله تعالى.

**ويعلم**: أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة. وربما كان الصلاح تأخيره. وربما كان خلاف ذلك.

فثبت أن هذا الكلام غير لائق بالرسول «عليه الصلاة والسلام».

ثم إن صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده «عليه الصلاة والسلام» أن يجربها، ليعرف قدر علمها، أو ليعرِّف الناس قدر علمها»[1].

وهذا الكلام من الرازي في محله، غير أننا نلاحظ: أن كلامه هذا يدل على أنه «صلى الله عليه وآله» لم يجزع لأجل انقطاع الوحي، وأن الروايات التي ذكرت ذلك، حتى قالت له خديجة ذلك القول لا يمكن قبولها. فكان

(1) تفسير الرازي ج31 ص209 و 210 .

على الرازي أن يشير إلى ذلك أيضاً..

## جزع الرسول ' وترك الأولى:

**قال الرازي**: «الروايات التي ذكرتم تدل على أن احتباس الوحي كان عن قلى.

**قلنا**: أقصى ما في الباب أن ذلك كان تركاً للأفضل والأولى. وصاحبه لا يكون ممقوتاً ولا مبغضاً.

**وروي**: أنه «عليه الصلاة والسلام» قال لجبريل: ما جئتني حتى اشتقت إليك.

فقال جبريل: كنت إليك أشوق، ولكني عبد مأمور. وتلا: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**﴾[1]»[2].

**ونلاحظ**:

**أولاً**: لإن الرواية التي استدل بها لا تدل على مطلوبه، فإن الكلام في المقت عند الله، ونزول الدرجة عنده، لا عند جبرئيل، فشوق جبرئيل إلى رسول الله وعدمه لا أثر له..

**ثانياً**: إن قول جبرئيل: إنه عبد مأمور، يدل على أن الله تعالى هو الذي منعه من المصير إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله». وأن الأمر لم يكن بيد

---

(1) الآية 64 من سورة مريم.

(2) تفسير الرازي ج31 ص210.

جبرئيل. فيبقى الاحتمال قائماً.

**ثالثاً**: ما ادعاه الرازي، من أن ما ورد في تلك الروايات كان تركاً للأفضل والأولى وصاحبه لا يكون ممقوتاً، ولا مبغضاً[1]، فهو لا ينسجم مع ما ورد في الروايات، فإن الجزع الذي ظهر من رسول الله ـ كما زعمته بعض الروايات المتقدمة ـ يدل على أنه «صلى الله عليه وآله» قد شعر بأن انقطاع الوحي كان عقوبة له.. كما أن ما ذكرته بعض الروايات الأخرى، من أن هذا الانقطاع كان بسبب أنه لم يعلِّق وعده لليهود على المشيئة الإلهية، أو لأنه تمثل ببيت من الشعر.. يدل على ذلك أيضاً، أي على أن انقطاع الوحي كان عقوبة له «صلى الله عليه وآله».

وقوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ لا يدل على أنه «صلى الله عليه وآله» لم يفعل أمراً يستحق به ذلك، بل غاية الأمر: أن هذه العقوبة لا تعني القطيعة والبغض، لأن ما أوجبها لم يكن إلا كتأديب المرء لولده، فإن التأديب لا يستدعي قطع العلاقة مع الولد، أو بغضه وهجره.

**وبذلك يظهر**: أن ما ذكره الرازي غير كاف، بل غير مقنع، فالصحيح هنا هو الحكم على تلك الروايات بالبطلان من أساسها..

**تقليم الأظافر، وتنقية البراجم:**

أما بالنسبة لما ذكرته رواية أخرى، من أن سبب انقطاع الوحي هو أن

(1) تفسير الرازي ج31 ص210.

المسلمين لا ينقون براجمهم، ولا يقلمون أظافرهم.

فهنا أسئلة تطرح، وتحتاج إلى جواب.

**فأولاً**: إن الأوساخ لا تكون في عقد الأصابع وحسب، بل هي تكون في كثير من مواضع البدن، ولاسيما في الأرجل.. بل إن البراجم التي في الأصابع قد تكون أكثر نظافة من بعض المواضع الأخرى، لأن اليد التي هي أكثر الأعضاء حركة وملامسة للأشياء، ويهتم الإنسان بتفقدها، والنظر إليها باستمرار، وهي من أكثر الأعضاء تعرضاً للتنظيف بالماء تارة، وبمسحها ببعض الخرق، وقد يحتاج إلى حكها ببعض الأجسام الصلبة لاقتلاع بعض ما يعلق بها.. فالإنسان ينظف يده عدة مرات قبل أن يحاول تفقد وجهه وتنظيفه مرة واحدة.

**ثانياً**: لو صح أن عدم نظافة البراجم، وعدم تقليم الأظافر يمنع من نزول الوحي، لكان يجب أن لا ينزل الوحي عليه «صلى الله عليه وآله» من الأساس.. لأن هذا الحال فيهم لم يكن عارضاً، بل كان موجوداً من السابق. فما معنى أن تنزل عليه سورة: إقرأ، والمزمل، والمدثر، ونون وتبت.. و.. و.. إلخ.. وبراجم الناس وسخة ولا يقلمون أظافرهم؟!

**ثالثاً**: ما هو الربط بين نزول الوحي، وبين تقليم الأظافر، وتنظيف البراجم؟!

ولماذا لا يكون عدم ترجيل الشعر، أو عدم دخول الحمام كل أسبوع، أو عدم تنظيف الأعقاب، التي يروى أن رسول الله «صلى الله عليه وآله»

قال عنها: «ويل للأعقاب من النار»[1] ـ لماذا لا يكون ذلك أو سواه ـ من أسباب منع نزول الوحي؟! كما يدعى.

**رابعاً**: علينا أن نسأل: هل صار الناس يقلمون أظافرهم، وينقون براجمهم بعد نزول سورة الضحى؟! وهل تغير الحال من ذلك الوقت.. وإلى آخر حياة رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟! أم أنهم بقوا على ما كانوا عليه؟!

## اليهود في مكة:

**وقد ذكرت بعض الروايات المتقدمة**: أن سبب انقطاع الوحي هو أنه

(1) كنز الفوائد ص68 و 69 والصراط المستقيم ج3 ص265 وبحار الأنوار ج64 ص170 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص384 واختلاف الحديث للشافعي ص522 ومسند أحمد ج2 ص193 و 205 و 211 و 226 و 228 و 284 و 389 و 406 و 409 و 430 و 467 و 482 وج3 ص316 و 426 وج4 ص191 وج5 ص425 وج6 ص81 و 84 و 99 و 112 و 192 و 258 وسنن الدارمي ج1 ص179 وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج1 ص21 و 32 و 49 وصحيح مسلم ج1 ص147 و 148 وسنن ابن ماجة ج1 ص154 و 155 وسنن أبي داود ج1 ص30 وسنن الترمذي ج1 ص30 وسنن النسائي ج1 ص78 والمستدرك ج1 ص162 والسنن الكبرى للبيهقي ج1 ص69 و 70 و 84 و 230 وج2 ص89 ومصادر كثيرة أخرى.

«صلى الله عليه وآله» أعطى اليهود وعداً بأن يجيبهم على أسئلتهم، ولم يقل «إن شاء الله»..

ويستوقفنا في هذه الرواية أمور عديدة..

**فأولاً**: لم يكن اليهود في مكة آنئذٍ، وإنما كانوا في المدينة، وكان يوجد في مكة أفراد قليلون جداً قد تعلقوا بالنصرانية، مثل ورقة بن نوفل.. فما الذي جاء باليهود إلى مكة، ليطرحو على النبي «صلى الله عليه وآله» هذه الأسئلة؟! وهو إنما بعث قبل شهر، أو قبل بضعة أشهر، أو سنة، فإن خبر بعثته لم يكن قد انتشر ليصل إلى المدينة أو غيرها بعد..

**ثانياً**: لو سلمنا أن نفراً من اليهود قد جاؤا إلى مكة على سبيل الصدفة، فإننا نقول:

إن طاعة رسول الله «صلى الله عليه وآله» لربه لم تكن تقتصر على الواجبات، فإن الله سبحانه إن كان قد أمر رسوله قبل نزول سورة الضحى بأن لا يعد بشيء إلا ويعلقه على المشيئة الإلهية، فلا يعقل أن يترك النبي ما أمره الله تعالى به، أو أن يتهاون فيه.

وإن لم يكن قد أمره بذلك، فلماذا يعاقبه بهذه العقوبة القاسية على ترك أمر لم يطلب منه فعله؟! وما معنى أن يحجب عنه الوحي، ويجعله عرضة لشماتة الأعداء، ويتسبب له بالجزع الشديد، كما ذكرته الروايات المزعومة المتقدمة؟!

ولماذا نراه يجتهد في العبادة حتى تورمت قدماه فتنزل الآيات لتخفف عنه،

فقد ورد أن سبب نزول قوله تعالى: .. ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1]، هو ما كان يفرضه على نفسه من تشدد ومشقة، ويبذله من جهد في العبادة.

**إلا أن يقال:** إن سورة طه قد نزلت بعد نزول سورة الضحى بعدة سنوات[2]. بل في بعض روايات شأن نزول هذه الآية ذكر لعائشة[3]، مع أن عائشة لم تدخل بيت النبي «صلى الله عليه وآله» إلا في المدينة.. فالروايات الأخرى التي لم تذكر عائشة هي الصحيحة[4].

**ويظهر من بعضها:** أن سورة طه قد نزلت بعد حوالي عشر سنين من البعثة على أقل تقدير[5].

**ثالثاً:** هل إن عدم قوله «صلى الله عليه وآله»: «إن شاء الله» بعد وعده بالجواب يدل على أن بعض العباد يمكن أن يتصرف بالأشياء على خلاف مشيئة الله سبحانه؟!

**رابعاً:** إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ

---

(1) الآيتان 1 و 2 من سورة طه.

(1) راجع: الإتقان ج1 ص97 و 42 وحول مناسبة نزولها راجع: البرهان للبحراني ج5 ص155 والدر المنثور ج5 ص549 ـ 551.

(2) راجع: البرهان للبحراني (تفسير) ج5 ص155 والكافي ج2 ص77.

(3) البرهان ج5 ص155 أو الإحتجاج ص219.

(1) البرهان ج5 ص155 والدر المنثور ج5 ص549 ـ 551.

**يَشَاءَ اللهُ**﴾[1]، قد وردت في سورة الكهف، وقد نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى بمدة طويلة كما يظهر من ترتيب نزولها بحسب الرواية المروية عن ابن عباس، وعن جابر بن زيد[2]، فإن كان المستند هو هذه الآية، فهي لم تكن قد نزلت على الرسول «صلى الله عليه وآله».. وإن كان المستند هو أمر آخر أصدره الله تعالى له فيما بينه وبينه، فيحتاج ذلك إلى دليل يدل عليه..

## هل الشماتة هي مشكلة النبي ؟!:

**وتذكر رواية أسئلة اليهود**: أن السبب في الغم الذي وقع فيه النبي «صلى الله عليه وآله» هو أن إبطاء الوحي عليه سيكون من موجبات شماتة الأعداء.

ولنا على هذا الكلام العديد من الأسئلة.

**فأولاً**: لو أن الأعداء قد رأوا ضعفاً أو وهناً أو عيباً كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يحاذر من ظهوره واشتهاره، لكان هناك مبرر لأن يغتم رسول الله «صلى الله عليه وآله» لأجل ذلك، فإن هذا الضعف هو الذي يوجب شماتة الأعداء، فهل كان إبطاء الوحي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» عيباً أو ضعفاً أو وهناً فيه؟! فإن كان كذلك، فلماذا يفعل الله بنبيه ما له هذه الصفة؟!

**ثانياً**: لا ندري لماذا كانت شماتة الأعداء بنظر رسول الله «صلى الله عليه وآله» أهم وأشد عليه، من عقوبة إلهية يتعرض لها، فما هذا النبي الذي يغتم

---

(1) الآيتان 23 و 24 من سورة الكهف.

(2) الإتقان ج1 ص42 و 43 و 95 ـ 96.

للشماتة، ولا يغتم للعقوبة التي هي تعبير عن المؤاخذة، وحرمان من الكرامة والرعاية، واللطف الإلهي؟!

فإن هذا الأمر لا يتوقع صدوره من أي إنسان عادي يحترم نفسه وعقله، فما بالك بأشرف الخلق وأعز المرسلين؟! فإن اهتمامه بشماتة عدوه وعدم اهتمامه بحرمانه من مقام القرب، يدل على طغيان حبه لنفسه على حبه لربه. ومن كان هذا حاله، فإنه لا يستحق لا مقام النبوة والرسولية للبشرية جمعاء، ولا حتى أي مقام آخر، ولو أن يكون إمام جماعة في صلاة.

ألم يكن الأجدر أن يكون غمه خوفاً من أن يؤدي إبطاء الوحي عنه إلى ضعف إيمان المؤمن، ومن موجبات إبطاء الناس في استجابتهم لما يدعوهم إليه، فيكون خوفاً رسالياً. يزيده «صلى الله عليه وآله» قرباً من الله تعالى..

إذ لا يمكن أن يغتم رسول الله «صلى الله عليه وآله» لشماتة الأعداء، ولا يغتم لضلالهم وصدودهم عن الحق. ومعصيتهم لأمر الله ورسوله.

ومما يدل على أنه «صلى الله عليه وآله» كان يغتم لضلال الناس، لا لشماتتهم قوله تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[2].

(1) الآية 8 من سورة فاطر.

(2) الآية 6 من سورة الكهف.

## حمالة الحطب، لماذا؟:

بقي أن نشير إلى الرواية التي ذكرت هجاء الله لأم جميل، وأنها هي التي قالت له: إن ربه ودعه وقلاه، فنلاحظ:

**أولاً**: إن هذه الرواية تضمنت تكذيباً لله ولرسوله على لسان حمالة الحطب، ولم نجد جواباً من النبي «صلى الله عليه وآله» لها على ذلك.

فإنها بعد قول رسول الله «صلى الله عليه وآله» لها: ما هجاك إلا الله، قالت له: هل رأيتني أحمل حطباً، أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد.. ثم انطلقت إلخ..

فقد أنكرت في كلامها هذا أن يكون ذلك قد حصل بالفعل. ولم تذكر الرواية: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أجابها بنعم أو بلا. الأمر الذي يعطي انطباعاً بأنه «صلى الله عليه وآله» قد صدقها في كلامها. أو أنه أحصر ولم يعرف بماذا يجيبها.. وكلاهما باطل ومردود.

**مع أنهم يروون عنها**: أنها كانت تأتي بأغصان الشوك، تطرحها بالليل في طريق رسول الله[1].

**وإن كانت نصوص أخرى قد ذكرت**: أن هذا كناية عن كونها كانت

(1) الدر المنثور ج8 ص667 عن ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر.

تمشي بالنميمة، وتنقل الحديث[1].

**ثانياً**: إذا كانت سورة الضحى قد نزلت بعد سورة إقرأ.. فذلك يعني: أنها قد نزلت بعد البعثة بأيام ـ هي حسب قول الروايات المتقدمة: يومان، أو ثلاثة أو اثنا عشر، أو.. أو.. أو.. أو أربعون يوماً ـ مع أن سورة المسد قد نزلت ـ كما في بعض الروايات ـ حين حصر المسلمين في شعب أبي طالب. أي في السنة السادسة من البعثة كما صرحت به رواية ابن عباس[2].

**ويدلنا على ذلك**: أن سورة المسد قد نزلت في مناسبة إنذار النبي «صلى الله عليه وآله» عشيرته الأقربين، حين نزل قوله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[3].

وإنما نزلت آية إنذار العشيرة بعد ولادة فاطمة الزهراء «عليها السلام»

---

(2) الدر المنثور ج8 ص667 عن ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، وقتادة، والحسن.

(3) الدر المنثور ج8 ص665 عن دلائل النبوة لأبي نعيم.

(4) الآية 241 من سورة الشعراء، وراجع الحديث المصرح بذلك في الدر المنثور ج8 ص666 عن سعيد بن منصور، والبخاري، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في دلائل النبوة، والبرهان (تفسير) ج8 ص417 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص24.

كما دلت عليه روايات عديدة[1] عن أبي هريرة، وعائشة، وعروة، وأنس، والبراء، وقتادة، وأبي إمامة.

وإنما ولدت الزهراء «عليها السلام» بعد الإسراء والمعراج. أي في السنة الخامسة من البعثة، فراجع كتابنا الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله».

**مقدار الإبطاء:**

بقي أن نشير إلى أن ما ورد في بعض الروايات المتقدمة، من أن الوحي أبطأ على النبي «صلى الله عليه وآله»، يوماً، أو يومين أو ثلاثة، أو أربعة أو اثني عشر يوماً، أو نحو ذلك يبقى في دائرة الريب الشديد. أو الرفض الأكيد، فإن الناس ما كانوا يتوقعون من رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يوافيهم كل يوم أو يومين، أو ثلاثة، أو حتى كل عشرة أيام بجديد ما أنزل عليه من ربه.

ولو وزعنا آيات القرآن على مجموع أيام بعثته، فإن عدد آيات القرآن لا يبلغ ثلاثة أرباع عدد أيام مكثه «صلى الله عليه وآله» بينهم.. لو فرض أن نصيب كل يوم آية واحدة، فكيف إذا كان ينزل عليه في كل مرة مجموعة من الآيات، وقد تبلغ أحياناً العشرات، وقد تكون سورة كاملة من السور الطوال، كسورة الأنعام، وغيرها أيضاً، وفي بعض الروايات: أن أكثر سور

(1) راجع: الدر المنثور ج6 ص424 ـ 327 عن البخاري ومسلم، وأحمد، وعن بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان وفي الدلائل.

المفصل كانت تنزل سورة سورة، كما أنه بعض السور كان ينزل منها ثمانون آية مرة واحدة.

**فلا معنى للقول:** إن الناس كانوا يتوقعون نزول القرآن عليه «صلى الله عليه وآله» في كل يوم أو حتى في كل أسبوع مرة. فانقطاع الوحي أسبوعاً أو أكثر أو أقل لم يكن يلفت النظر، ولكن انقطاعه شهراً أو أربعين يوماً، أو حتى عشرين يوماً قد يثير التساؤل. ويلفت النظر..

**وقد قلنا:** إن الله سبحانه قد أخر الوحي عن نبيه لكي يفضح أمر أعدائه، ويعرف الناس بتناقضاتهم، وببطلان ما يتهمونه به.

**القرار من الملائكة:**

وتقدم في قصة الجرو الذي كان للحسن والحسين «عليهما السلام»: أن النبي «صلى الله عليه وآله» عتب على جبرئيل لإبطائه عليه. فاعتذر جبرئيل بأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة..

**وهذا معناه:** أن هذا الإبطاء كان بقرار من الملائكة، مع أن الروايات قد صرحت الرواية بأن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يكن يدري بوجود ذلك الجرو الميت تحت سريره، ولم تذكر تلك الرواية اعتراض أحد من الناس على إبطاء جبرئيل، فما معنى هذا الحرص الإلهي على القسم بالضحى، وبالليل إذا سجى، لكي ينفي أمراً لم يذكره أحد، كما يظهر من هذه الرواية؟!

**لا يلعب الإمام بالكلاب:**

**واللافت**: أن الرواية تدعي: أن الحسنين «عليهما السلام» قد اقتنيا جرواً؟ فما معنى رغبتهما بالجرو، دون غيره من أصناف الحيوان؟! فهل استعاضا به عن الملائكة؟!

وهل كان يعلم رسول الله «صلى الله عليه وآله» بفعلهما هذا؟! وكذلك أبوهما وأمهما؟! وإذا كانوا قد علموا بذلك، فلماذا لم ينههما لا جدهما، ولا أبوهما، ولا أمهما عن اللعب بالكلاب، ولم يرشدوهما إلى ما هو أولى وأفضل لهما؟!

أم أن المطلوب هو: أن يلعب الحسنان «عليهما السلام» بالكلاب، كما كان يزيد يلعب بها، لكي لا يبقى فرق بين أهل بيت النبوة الذين طهرهم الله، وبين أولئك الفسقة الفجرة؟!

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1]..

**دثروني.. ورعدة الوحي!:**

**وذكرت بعض الروايات المتقدمة**: أنه «صلى الله عليه وآله» كان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة.. وأنه لما رجع إلى البيت ـ وكانت خولة قد كنست البيت، واستخرجت الكلب الميت من تحت السرير، وألقته خارج البيت ـ أخذته الرعدة، فقال لخولة: دثروني، ونزل عليه الوحي..

**ويستوقفنا في هذه الرواية أمور كثيرة، فلاحظ التساؤلات التالية:**

---

(1) الآية 5 من سورة الكهف.

**1ـ** أين كانت خديجة «صلوات الله وسلامه عليها» عن بيت رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟! ولماذا انفردت خولة بهذا البيت، حتى لم يكن فيه سواها يشكو إليه «صلى الله عليه وآله» انقطاع الوحي عنه، ويطلب منها أن تدثره لما أخذته الرعدة؟!

ومن هي خولة هذه؟! وما هي علاقتها ببيت النبي «صلى الله عليه وآله»؟! وكيف ومتى نشأت هذه العلاقة؟!

**2ـ** إن هذه الرعدة المزعومة حين نزول الوحي إنما تحدثت عنها الكتب المحرَّفة التي تسمى بالتوراة والإنجيل، فإنها هي التي ذكرت أن هذه الحالات كانت تصيب الأنبياء حين كان يوحى إليهم.

**فقد ورد في تلك الكتب**: أن دانيال حين أوحي إليه خاف وخرَّ لوجهه.

وزكريا اضطرب، ووقع عليه الخوف.

ويوحنا سقط في رؤياه كميت.

وعيسى تغيرت هيئة وجهه.

وبطرس حصلت له غيبوبة وإغماء.

وهكذا الحال بالنسبته ليعقوب، وإبراهيم، وسواهما «على نبينا وآله وعليهم الصلاة والسلام»[1].

**3ـ** لماذا يريد «صلى الله عليه وآله» أن يدثروه؟! هل كانت الرعدة التي

(1) راجع: الهدى إلى دين المصطفى البلاغي ج1 ص14.

تنتابه رعدة برد، أو رعدة خوف؟!

فإن كانت رعدة برد فلا بد أن نسأل عن الرابط بين مجيء الملك، وحصول البرد.

وإن كانت رعدة خوف، فإن الدثار لا يدفع عنه الخطر، ولا يزيل عنه الخوف، ولا يردُّ عنه ما يخاف منه..

**4** ـ ولماذا هذه الرعدة المزعومة؟! ولماذا لم نجد أحداً من أئمة أهل البيت «عليهم السلام» يذكرها لنا، ويبين أسبابها؟!

وهل مجرد رؤية الملك توجب الرعدة؟! ولماذا لا تكون من موجبات الأنس، والرضا، والراحة والبهجة؟! وما الفرق بين رؤية الملك، ورؤية الجني مثلاً؟!

**5** ـ هناك روايات تذكر: أنه «صلى الله عليه وآله» حين أوحي إليه في حراء رجع إلى أهله مسروراً موقناً أنه قد رأى أمراً عظيماً. وقال لخديجة: أريتك الذي كنت حدثتك أني رأيته في المنام؟! فإن جبرئيل قد استعلن إليَّ، أرسله إليَّ ربي عز وجل. وأخبرها بالذي جاء من الله، وما يسمع منه.

فقالت له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً إلخ..[1].

**وفي رواية أخرى**: أنه «صلى الله عليه وآله» كان إذا تبدَّى له جبرئيل، وخاطبه بالرسالة يسكن جأشه، وتطمئن نفسه[2].

وإن كانت هذه الرواية قد تضمنت نسبة أمر إلى النبي «صلى الله عليه

---

(1) البداية والنهاية ج3 ص13.

(2) السيرة الحلبية ج1 ص244 والسير النبوية لدحلان ج1 ص84.

وآله» مكذوب عليه بلا ريب، لأنها تدعي أنه كان يريد أن يتردى من شاهق، فكان إذا ارتقى بذروة جبل تبدى له جبرئيل إلخ..

**التطابق المفقود:**

وإذا قارنا بين الروايات وبين الآيات، فإن أكثر الروايات لم تشر إلى الوداع والقلى في نصها. بل ذكر بعضها أن خديجة قالت له: لعل ربك تركك.. وهذا لا يتوافق مع ما نقله القرآن. وفي رواية أن المسلمين قالوا له: ما ينزل عليك الوحي. ورواية اليهود لم تذكر أن أحداً قال شيئاً، بل تذكر أنهم سألوه وذهبوا. وراوية أم جميل تقول: أنها قالت: ما أرى شيطانك إلا تركك.. ورواية الجرو الميت لا ربط لها أيضاً بالتعبير الوارد في الآية.

ولتلاحظ سائر الروايات، وليقارن بينها وبين الآيات الكريمة.

# الفصل

**(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)** مغزاها ومعناها

**ظهر مما تقدم!!:**

**ظهر مما تقدم في الفصل السابق**: أن آيات سورة الضحى تُظهِر بما لا يقبل الشك أن ثمة أمراً مهماً يريد الله تعالى أن يؤكد عليه، وأن يرسخه، ويثبته بالأقسام المؤكدة، وأن ثمة من ينكر ذلك الأمر، وينفيه..

**ويلاحظ أن الروايات المتقدمة كانت على نحوين:**

**أحدهما**: لم يتحدث عن توديع الله تعالى لنبيه، ولا عن بغضه إياه، وفراقه له، بل جاء في بعضها أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد ترك كلمة إن شاء الله في كلامه مع اليهود، لا أكثر ولا أقل.

كما أن بعضها الآخر ذكر أن وجود جرو ميت تحت سرير الرسول هو الذي أوجب انقطاع الوحي.

ولم تذكر أن أحداً عاب على النبي «صلى الله عليه وآله» هذا الأمر، أو اتهمه به، أو ادعى أن وداعاً، أوبغضاً قد حصل من الله تعالى لرسوله.

**وبعض ثالث يقول**: إن سورة العلق نزلت، ثم أبطأ الوحي، فسأله المسلمون عن سبب ذلك، فذكر أن السبب هو أن المسلمين لا يقلمون

أظافرهم، ولا ينقون براجمهم..

**وفي بعضها**: أن جبرئيل أخبره أن سبب الإبطاء هو أن الملائكة هي التي امتنعت عن المجيء إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لأنها لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة، ولم يكن النبي «صلى الله عليه وآله» يعلم بوجود جرو الكلب، ولا بموته تحت سريره..

وقد ذكرنا العديد من المؤاخذات على هذا القسم من الروايات.

**الثاني**: هناك قسم آخر من الروايات أشار إلى أن أحداً من الناس قد أشار إلى توديع الله تعالى لنبيه، وبغضه له استناداً إلى إبطاء الوحى عنه. وأن سبب إبطاء الوحي هو فعل صدر من النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه، استحق به هذا العقاب الإلهي المبطن..

**وقد قلنا**: إن هذا القسم لا يمكن القبول به، بل نحن نقطع بعدم صحة هذه الأسباب التي تدّعي صدور بعض ما لا ينبغي صدوره من رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولو بادعاء أنه خلاف الأولى..

لأن النبي «صلى الله عليه وآله» لا يفعل خلاف الأولى. لأنه إن لم يدرك الأولى فذلك نقص، لا تصح نسبته إليه ولا إلى غيره من الأنبياء، وإن أدرك أنه خلاف الأولى وأقدم عليه، فذلك يعني أنه غير سليم في تفكيره، لأنه فعل ما لا يقدم عليه عاقل، عالماً كان أو جاهلاً. فكيف يفعله صفوة الخلق، وأكرم المخلوقات؟! ومن أمر الله تعالى بالتأسي والاقتداء به، والاتباع له..

**الإبطاء: استدراج للاعتراف:**

**من أجل ذلك كله نقول:**

**أولاً**: الظاهر: أنه تعالى هو الذي بادر إلى فعل ذلك برسول الله، توطئة واستدراجاً لأولئك المعاندين، ليعترفوا ولو بصورة عفوية بأن الأمر ليس بيد الرسول، بل هو بيد الله سبحانه، فهو تعالى ينزل عليه الوحي متى شاء، ويقطعه عنه إذا شاء. فلا خيار ولا اختيار لرسول الله «صلى الله عليه وآله» فيه، لأن الله تعالى هو الذي يودعه، وهو الذي يصله ويقطعه، ويحبه أو لا يحبه، وهو الذي يوحي إليه أو يقطع الوحي عنه.

فلا يصح لأحد أن يتهم هذا الرسول بأن له من الأمر شيء. قال تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[1]. فلا معنى لاقتراح الناس على النبي «صلى الله عليه وآله» أن يأتي بالمعجزات، أو أن يأتي بالآيات، ويتصرف بالأمور كما يحلو له.. فإن هذا الاتهام الذي يوجهه المشركون لرسول الله، من أنه هو الذي يختار ويتصرف، وهو المبدأ والمنتهى إنما يريدون به التمهيد لإنكار الوحي من الأساس، مع أنه محض ادِّعاء باطل، وافتراء لا أساس له.

فكان هذا الحدث المثير هو الذي استلب منهم هذه الحربة المسمومة، التي يريدون أن يطعنوا بها النبي والنبوة، حيث عرف الناس أنه «صلى الله عليه وآله» لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً. وظهر بذلك أنه لا معنى لقولهم

(1) الآية 128 من سورة آل عمران.

له: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[1]. وظهر مصداق قوله تعالى ﴿قُلْ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾[2]. بل هو بيد الله، ومنه وإليه سبحانه..

وهذا إبطال منه تعالى لكيدهم. وتزييف لترهاتهم.. وهو يفتح أعين الناس على الحق، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[3].

**ثانياً:** هناك فرق بين الوداع والقلى، فإن الوداع هو المفارقة مع إظهار المحبة، مع تمنى المودِّع وتوقعه رجوع المودَّع ـ بفتح الدال ـ إلى الدعة، ولين العيش وطيبه. يقال: ودع المسافر الناس توديعاً: خلفهم خافضين. وهم يودعونه إذا سافر تفاؤلاً بالدعة التي يصير إليها إذا قفل[4]، ففي الوداع معنى المحبة والرضى والوئام بين المودِّع والمودَّع..

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا الوداع بين الله تعالى وبين نبيه؟!

أما القلى، فهو ـ كما قيل ـ: البغض، بل قيل: إنه البغض الشديد. أو: هو الهجر. ولم نره «صلى الله عليه وآله» فعل مع الله ما يوجب البغض والقلى، بل لم يزل يكافح، وينافح، ويضحي بكل غال ونفيس في سبيل رضاه تعالى. على أن الوداع معناه الغيبة والفراق، وهل يغيب الله تعالى عن

---

(1) الآية 15 من سورة يونس.

(2) الآية 15 من سورة يونس.

(3) الآية 42 من سورة الأنفال.

(4) أقرب الموارد ج2 ص1437 و 1438.

خلقه، ويفقد الصلة بهم، ولاسيما إذا كان تعالى يريد أن يربي وينمي مربوبه.

**ثالثاً**: إذا كان هذا هو الفرق بين التوديع والقلى، فكيف نجمع بين هذين الأمرين المتناقضين اللذين يستبطن أحدهما البغض الشديد. ويستبطن الآخر الرضا والمحبة، وتمني الخير؟!

فإن كان الله تعالى قد ودَّع نبيه، فهو لم يقله، ولم يبغضه، لا بغضاً ضعيفاً ولا شديداً.

كما أنه لم يهجره، بل تركه على أمل العود إليه، وقد تركه وهو يأمل الخير، وخفض العيش، واللين والدعة.

**كما أن الهجر معناه**: البعد المصاحب للسلو، والتناسي أو النسيان، وقطع الصلة، وعدم التفكير باللقاء من جديد.

وإن كان قد قلاه، فذلك معناه: أنه قد أبغضه أشد البغض، فإذا كان المشركون قد قالوا هذا الكلام عن الرسول، أعني أن الله ودعه وقلاه، فهو بنفسه يدل على قلة عقلهم، وعدم فهمهم، وضعف إدراكهم حتى لمعاني كلامهم. حتى إنهم ليوردون الكلام المتناقص في سياق واحد.

ولا يفهم ذلك، إلا بأن يقال: إنهم إنما يتكلمون بأهوائم وغرائزهم لا بعقولهم، ويلقون الكلام على عواهنه، وبلا ميزان، ومن دون علم ويقين. أو معرفة بواقع الأمر..

ومن يلقي الكلام بلا تدبر أو تأمل فهو لا يحترم نفسه، ولا يحترم غيره، ولا يقدر شعوره. بل هو يقدم له المتناقضات، ويطلب منه أن يصدقه

فيها، وأن يؤمن بأنها حقيقة واقعة.

كما أن هذا الخطاب يدل على أنهم يجهلون حقيقة العلاقة بين الله تعالى وبين نبيه.

وبذلك يكونون قد أكذبوا أنفسهم بنفس هذا الكلام الذي يريدون من الناس أن يصدقوهم فيه. وقد نسفوا جهودهم، وأخربوا بيوتهم بأيديهم، وأيدي المؤمنين.

فحين نقل الله تعالى كلامهم هذا.. ورد عليه بهذه الأقسام، وبهذه الحدة والشدة، فإنه يكون:

**1** ـ قد أبطل دعواهم بصورة طبيعية وعفوية، ومن أسهل طريق.

**2** ـ إن ذلك قد حصل بلسانهم، على قاعدة: من فمك أدينك.

**3** ـ إنه عرَّف الناس بمدى جهلهم، وقلة فهمهم وعدم تدبرهم.

**4** ـ عرَّف الناس أيضاً: بأنهم يلقون الكلام على عواهنه، ولا يتورعون عن الاتهام الباطل، والرجم بالغيب، والقول بغير علم، وبغيرالحق.

**5** ـ إنهم يقدمون عن سابق علم وإصرار على تضليل الناس.

**6** ـ إنهم لا يحترمون عقول الآخرين، ولا يقيمون وزناً لهم، ويعملون على خداعهم ، بأحط الأساليب، وأرذلها.

**7 ـ ونستفيد من هذا النوع من الخطاب أيضاً**: أن علينا أن ندرس المنهج الإعلامي لدى عدوّنا، ونتعرف على مكامن الضعف فيه، ونظهر ما فيه من تزوير وخطل. فإن هذا أبلغ أسلوب لإسقاط حجته، وتعطيل أقوى أسلحته وأمضاها..

**وواضح**: أن تعريف الناس بهذه الأمور، وتقويض مصداقيته فيما يقول وفيما يفعل، وكشف مدى وهن الركائز التي أقام عليها بنيانه، وأنه لا يعتمد المنطق السليم، ولا المعايير الصحيحة، ولا يلزم نفسه بالمبادئ والقيم.. ـ إن ذلك ـ من شأنه أن يفقده الصلاحية للاعتماد عليه، والوثوق به، وأن لا يؤتمن حتى على أعز الناس عليه، وأقربهم إليه، فهل يؤتمن على أرواح الناس، أو على أعراضهم، أو على دينهم ومستقبلهم ومصيرهم؟! في حين أن هذه الثقة هي رأس ماله الذي إذا خسره خسر كل شيء.

فإن من لا يتعامل مع الأمور على أساس معيار واقعي، ومن منطلق القيم الأخلاقية، والإنسانية الصالحة، فإنه سيصبح إنساناً عشوائياً، لا يمكن ضبط حركته، ولا البناء عليها.. ولعله يخرجها من سيئ ليدخلها فيما هو أسوأ أو أضر، وأخطر وأشر..

ومن الطبيعي أن يكون التعامل مع هذا النوع من الناس، انطلاقاً من واقعهم الذي وضعوا أنفسهم فيهم، إذ لا مجال للمقامرة ولا للمخاطرة في الأمور الحساسة والمصيرية، ولأجل حساسية وأهمية المصير نجد أن الله يصف حال الناس يوم القيامة، فيقول: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾[1]..

(1) الآيات 34 ـ 36 من سورة عبس.

**أيكون الرب متناقضاً؟! حاشا!:**

**وقد أظهر قول هؤلاء الناس**: إن الرب قد ودع محمداً وقلاه: أنهم يرون أن هذا الرب يغيب عن مربوبه ويحضر، وأنه يحب ويتوقع الخير والدعة لمربوبه، ثم هو يبغضه أشد البغض. كما أنه يهجره ويقطع صلته به، في نفس الوقت الذي يودعه على أمل اللقاء به.

وحاشا الرب أن يكون متناقضاً في تصرفاته، وفي مواقفه وحالاته؟! وهل يمكن الجمع بين دواعي هذه الأمور؟! فإنه إذا كان يبغضه أشد البغض، فلماذا يودعه على أمل اللقاء به؟! ولماذا يتوقع له الرخاء والدعة وخفض العيش إذا كان يبغضه؟! وكيف يمكن أن يكون الغائب عن المربوب رباً؟! فإنه إذا كان رباً، فيفترض أن يكون مهيمناً وشاهداً، وحاضراً وعالماً بكل شيء.

وما معنى الوداع من الرب للمربوب؟! هل لأجل أن الوداع مقدمة لغيابه عنه؟! أم أنه يودعه لأنه انشغل عنه بما هو أهم؟! وهل يمكن أن يشغل الرب شيءٌ عن شيء؟! وهل هو عاجز عن القيام بالأمرين معاً؟! وكيف يكون الرب عاجزاً؟!

**لماذا البغض والقلى؟!:**

وإذا كان هذا النبي لا يدخر جهداً في مرضاة ربه، ويبذل كل غال ونفيس في هذا السبيل، فهل من العدل أن يكافئه ربه بهذا البغض الأكيد والشديد؟!

على أن الرب إذا كان هو الذي يريد تنمية مربوبه، وإيصاله إلى كماله،

فلا يمكن أن يبغض مربوبه أشد البغض. لاسيما وأن هذا المربوب لم يزل العبد المطيع له، والمتفاني في تنفيذ أوامره، والباذل نفسه وكل ما لديه في مرضاته..

## لماذا قال: ما ودعك؟!:

**وقد يتسائل المرء**: لماذا قال تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ**﴾ ولم يقل: (لم) يودعك. وقال: ﴿**وَمَا قَلَى**﴾ ولم يقل: (لم) يقلك..

**ويمكن أن يجاب**: بأن كلمة (لم) إنما تنفي ما ادعاه الطرف الآخر، فإنه قال: إن محمداً قد ودعه ربه وقلاه.. وقال الرب في جوابه: لم يودعك ربك، يكون قد نفى نفس هذا الوداع الذي ورد ذكره في الكلام. ولكن نفي هذا الفرد في وقتٍ لانتفاء سببه فيه، لا يعني أن فرداً آخر لم يكن قد حصل لأجل حصول سببه من جديد..

أما إذا قال: ﴿**مَا وَدَّعَكَ**﴾، فإنه ينفيه، بنفي حقيقته. أي أنه ينفيه وينفي جميع نظائره في أي زمان، سواء علم بها هذا المخاطب أو جهلها.

وهذا بالذات هو ما يقال بالنسبة لقوله: ﴿**وَمَا قَلَى**﴾، ولكن مع وجود فرق بين القلى، الذي هو أشد البغض، وبين التوديع.

فإن التوديع تابع لسببه، فقد يقال: إن التوديع الذي يُدَّعى حصوله يوم الجمعة مثلاً، لم يحصل.. لكن ذلك لا يمنع من حصول توديع آخر يوم السبت مثلاً لحصول سببه.

أما القلى والهجر، فله حالة واستمرار، فطبيعته تختلف عن طبيعة التوديع الذي يحدث وينتهي بسرعة. فإذا أردنا أن ننفي الهجر، والبغض، فإنما ننفي أمراً له حالة مستمرة، ومتواصلة، وخير وسيلة لنفيه هي نفي حقيقته..

## تأويل غير مقبول:

**ولعلك تقول**: المراد من وداع الرب لمربوبه هو إفساح المجال له برهة من الزمن، لمعاودة الحركة بعدها بحيوية ونشاط.

**ويجاب**:

بأن هذا وإن كان يحل مشكلة الوداع، من جهة معنى الفراق والغيبة، ولكنه لا يحل المشكلة من حيث أن معناه يتضمن المودة والرضا مقابل معنى البغض في القلى، إذ لا نتعقل أبداً بغض الرب لنبيه ـ سواء أكان بغضاً ضعيفاً، أو شديداً.. ولا يجتمع مع المودَّة. بل لا بد من أن يكون حبه له عظيماً، وكرامته عنده ظاهرة.

وهذا يدل على أن المنفي من القلى والبغض ليس فرداً من أفراده، ومصاديقه، بل طبيعته وحقيقته من أساسها، وجذورها..

**وذلك يدعونا إلى القول أيضاً**: بأن المنفي هو طبيعة التوديع والمفارقة، لا خصوص ذلك الفرد الذي ورد في كلام المشركين، ليجري الكلام على نسقٍ واحد، وفي سياق واحد.

## لم يقل: ما ودعك الله!!:

**ويلاحظ هنا**: أنه تعالى قال: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ**﴾، ولم يقل: ما ودعك الله.

أو إلهك.

ولم يقل: ما ودعتك.

ولم يقل: ما ودعك الرب. فلماذا اختار خصوص تلك الصيغة يا ترى؟!

**ونجيب بما يلي:**

**ألف**: إن الكلام إنما هو عن الرب الذي لا بد أن يكون كل همه مصروفاً لحفظ مربوبه، ودفع الأسواء عنه، وجلب المنافع له، ومعونته في نيل الكمالات، والوصول إلى أفضل الغايات، والحصول على السعادات، وتحقيق أعظم النجاحات. كل ذلك من موقع المحبة والرحمة، والتدبير الصحيح، والحكمة والدراية والعقل..

ومن يكون كذلك، فلا مجال لأن يختار ترك مربوبه وهو أعز الخلق عليه، وأكرمهم مقاماً، وأشرفهم وأعزهم وأفضلهم، وأخصهم زلفة لديه، بل يكون دائماً معه، راعياً لأموره، مراقباً لأحواله، ولا يدعه وشأنه، ولو لفترة مهما كانت قصيرة، أو وجيزة.

كما أنه لا يمكن تصور هذا الرب الرحيم الكريم، والمدبر الحكيم مبغضاً لمربوبه، هاجراً له، في أي ظرف، وعلى أي حال.. فكونه رباً يقتضي عدم صحة توهم التوديع والقلى، إلا إن كان هناك اختلال في الفكر، ومجافاة للموازين..

**وبذلك يتضح**: أن المقصود هو تكذيب هذه المقولة الحاقدة بنفس كلمة (ربك) أيضاً.

ب: إن كلمة الله، أو إلهك، قد توحي لسامعها بمعنى العظمة والملك، والهيمنة، والقدرة أكثر مما توحي لسامعها بما توحي به كلمة «الرب» من معنى الرعاية، والتدبير، والرحمة ودفع النقص، ومعونة العاجز، والضعيف وما إلى ذلك..

ج: فإذا أضيف إلى كلمة «الرب» كاف الخطاب، فإن الشعور بالقرب والحنان، والرعاية لشخص المخاطب يصبح أقوى وأوضح. وأبين وأصرح. وليكون في هذا الإيحاء المزيد من التأكيد على كذب ما يدعونه من حصول هجر، أو بغض أو قلى، أو بعد وانفصال، ولو من موقع الرضا والمحبة..

**لم يقل: وما قلاك:**

**وقد يتوهم متوهم**: أن للمرء أن يتوقع إضافة كاف الخطاب إلى كلمة «قلى» في مقابل: ودعك، فلماذا لم يقل: «ما قلاك». كما قال: ﴿**مَا وَدَّعَكَ**﴾؟! إلا إن كان المقصود هو رعاية القافية وتناسب الآيات.

**ونجيب، فنقول:**

هذا خيال زائف زائل، وتوهم باطل، فإننا لم نجد في الآيات القرآنية أي التزام صارماً كان أو غير صارم بتناسق نهايات الآيات مع بعضها. بل كان المطلوب فيها هو استيفاء المضامين والمعاني.

بل إن عدم رعاية التناسق في قوافي الآيات هو من بدائع وروائع النظم البياني في آيات القرآن.

**ولعل السب في عدم إضافة كاف الخطاب في قوله: ﴿وَمَا قَلَى﴾ هو: أن**

الإتيان بكاف الخطاب في كلمة ﴿وَدَّعَكَ﴾ قد اقتضاه الخطاب، ولكن الكاف في كلمة قلاك لا تتلاءم مع المراد، فإنه تعالى يريد هنا نفي حقيقة القلى عن الذات الإلهية بالنسبة للنبي «صلى الله عليه وآله»، وكل المؤمنين، وجميع عباد الله الصالحين. وليس المقصود نفي خصوص هذا القلى الذي ادَّعاه المشركون هنا.. كما أوضحناه فيما سبق.

# الفصل

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

**خطورة الشائعة:**

**ظهر مما تقدم**: أن هذه السورة قد نزلت لمعالجة ما أراد المشركون أن يجعلوا منه شائعة يمكنهم استثمارها في الطعن بنبوة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، بهدف أن تصد الناس عن قبول دعوته، أو أن تحد من اندفاع الناس إليها، وتجعلهم يترددون في قبولها..

ولذلك كانت هذه السورة هي سورة معالجة الشائعات الباطلة، حيث أظهر هذا الاهتمام الشديد بدحض الشائعة أنها كانت بالغة السوء، شديدة الخطورة، لو لم تتم معالجتها بجدية فائقة، وبدقة متناهية..

ونزول هذه السورة والتي بعدها، وفيها ما تضمنته من تأكيدات متوالية، بدأت بها هذه السورة، ثم ما أشارت إليه من معالجات تكفلت بها آياتها المباركة ـ إن هذا كله ـ يدلنا على أمور كثيرة، نكتفي بالإشارة إلى أمور ثلاثة، وهي التالية:

**أولاً**: لقد دلت أن على الإنسان أن لا يستهين بالشائعة التي يطلقها مناوئوه، فإن أثرها السيئ قد يكون أعظم من أن يمكن تقديره.. ولا يجوز لصاحب الحق أن يتكل على يقينه ببطلان تلك الشائعة، وعلى معرفته ببراءة نفسه وطهارته، فلا يهمه ما يقوله الآخرون عنه.. فإن هذا منطق الضبع

التي تنام على طول اللدم، وهو سلاح العاجز، وقصير النظر.

**ثانياً**: دلتنا هذه السورة أيضاً على أن المعالجة يجب أن تكون فورية، وحكيمة، وسليمة، وحاسمة، وضمن الضوابط، وبالأساليب الصحيحة والمشروعة، وبالاستناد إلى خطة واعية، تعالج كل السلبيات التي يمكن أن تتركها تلك الشائعة..

**ثالثاً**: علمتنا أيضاً: أن الحصافة وجميل التدبير، وسديد الرأي يقتضي العمل على تحويل الشائعة نفسها إلى سوط يجلد به مطلقها، أو سيف يقطع به دابر كيده ومكره.. وهذا بالذات هو ما انتهت إليه هذه السورة المباركة في معالجتها لهذه الشائعة الخبيثة.

## إسقاط هيبة الرسول ′ :

**قلنا آنفاً**: إن غرض هؤلاء من إطلاق شائعة أن الله قد ودع محمداً وقلاه، كان هو الطعن بالنبوة، وصد الناس عن قبول الدعوة..

بالإضافة إلى إسقاط هيبة الرسول، وتوجيه الإهانة له، وأنه ليس فقط لا يستحق هذا المقام العظيم عند الله، بل إن ربه قد ودعه وقلاه، وأبغضه أشد البغض.. ربما لأنه أساء الأمانة، ولم يحسن التدبير.

ومن كان كذلك يصبح فارغاً من أي مضمون، ولا يمكن أن يكون نبياً.. فلا يمكن أن يملك القلوب، أو أن يصبح أولى بالناس من أنفسهم، وأحب الخلق إليهم، ولا يبقى له مقام القداسة والطهر، التي تكون للأنبياء..

**ونتيجة لذلك**: لا يضحي الناس بأموالهم، وأنفسهم، وأبنائهم، وبكل غال ونفيس في طاعته، وإنجاح دعوته.. بل ربما ينتهي به الأمر إلى أن يصبح مثار سخرية وعبث، وتندر واستخفاف.

وتذهب بذلك هيبته، وتتلاشى عزته، ويسقط محله في النفوس، وأصبح في موقع الذل والضعف، وأصبح ذليلاً محتاجاً خائفاً فقيراً لا ملجأ له ولا معين.

ويستضعفه الناس، لأن ربه قد أبغضه وهجره، وحرمه من ألطافه ومن فيوضاته، وعطاءاته.. فلا مطمع فيه لمحتاج، لأن الله لم يعد يمده بما يبذله لهم، أو أن عليهم أن يتوقعوا الحرمان من أية معونة اعتادوا عليها..

**والأهم من ذلك كله**: حرمه من تأييداته، ومن رعايته، ونصره.

وحرمه أيضاً من هداياته، ودلالاته على مكر الماكرين وكيد الخائنين.

وهذا غاية ما يمكن أن ينتهي إليه المكر والخبث، وتضيع بذلك جهود كل الأنبياء والصالحين. وكل دماء الشهداء والأصفياء، وتذهب سدى كل تضحيات المؤمنين، من لدن آدم، وإلى النبي الخاتم.. ومنه إلى يوم القيامة أيضاً.

فجاءت سورة الضحى لتجعل ذلك كله كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وقررت أن الأمر على عكس ذلك كله، وأنه لا يزال في حالة سمو ورقي، وتكامل مطرد يطوي منازل الكرامة منزلة منزلة. فليس ما هو فيه عطاء قد حصل وانتهى، بل هو متواصل ومستمر إلى ما لا نهاية، وبذلك يتضح أن كلمة «لك» في هذه الآية لها أهميتها الخاصة. وأن هذا الإستمرار مما اختصه الله تعالى به، وجعله كرامة له..

أما الآخرون، فقد تكون لهم بعض النعم في الدنيا، لكنهم ليس لهم في

الآخرة نصيب.

**من فمك أدينك:**

ولكن هؤلاء قد فضحوا أنفسهم بقولهم: إن محمداً قد ودعه ربه وقلاه، لأن قولهم هذا يمثل اعترافاً بأن القرار بيد الله سبحانه لا بيد النبي، فلا معنى لطرحهم تلك المطالب التعجيزية عليه، وطلبهم منه أن يفعل كذا وكذا.. كما لا معنى لاتهامهم إياه بالكذب والشعر والسحر، وبأنه هو الذي ينشئ هذا القرآن، وينسبه إلى الله تعالى.. وغير ذلك.

**وببيان آخر**: إنهم قد فضحوا أنفسهم لأنهم إن كانوا يعتقدون بأن الله تعالى قد يفعل ما لا يليق بمقامه الربوبي، وما لا يصدر من الحكيم، فإن ذلك يدل على ضحالة في الوعي ورعونة وخفة وسقم في الفكر، وإن كانوا لا يعتقدون بما يقولون، فهم يمارسون الخداع والمكر بالناس، وليسوا أهلاً للثقة في صغائر الأمور فضلاً عما عداها.

**وللآخرة خير لك من الأولى:**

**وقد لاحظنا**: أنه تعالى عقَّب قوله: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ بقوله: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾.

وهذا الأمر الذي يجب المبادرة إلى لفت النظر إليه، بعد أن اتضحت الأبعاد الخطيرة لهذه الشائعة، فإن المطلوب هو التعامل مع هذا الأمر، وكل أمر بمزيد من بعد النظر، والتفكير العميق، فلا يتعامل مع القضايا

بسطحية، ولا يتلهى بالظواهر عن سبر الأبعاد، والغوص في الأغوار، واكتناه الأسرار.

ولا ينشغل بالأمور القريبة، واللذائذ الحاضرة، عن الحقائق والدقائق.

فقد تضمنت هذه الكلمة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أموراً عديدة، نذكر منها:

**1** ـ إنها بدأت بلام الابتداء المفيدة للتأكيد، ولام الابتداء تدخل على الجملة الإسمية المكونة من مبتدأ أو خبر. أما لام القسم فتدخل على الفعل المؤكد بنون التوكيد الخفيفة أو الثقيلة، مثل: لتقومن أو لنسفعاً بالناصية. وإنا كنا نرى: أن إلحاق نون التوكيد ليس ضرورياً في لام القسم أيضاً.. بل إن ما زعموه من أن اللام الداخلة على المبتدأ هي لام الابتداء، وأن لام القسم لا تدخل على الجملة الإسمية غير دقيق، فإنه كما يصح أن تؤكد مضمون الجملة الإسمية بالقسم في قولك: والله زيد قائم. يصح أن تؤكده باللام التي تستبطن القسم أيضاً كما في قولك: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

إنها بشارة له «صلى الله عليه وآله» بأنه تعالى سوف لا يبقيه على الحال التي هو فيها، بل سيكون دائماً في حالة تنامٍ وتكامل، وازدياد، وانتقال مطَّرد ومستمر من حسن إلى أحسن.

**2** ـ إن الخيرية التي أشير إليها في هذه الآية ليست مقابل الشر، فلا يريد أن يقول له: أريد أن أنقلك من حالة بؤس وعناء وتعب وشقاء إلى حالة رخاء وخير، لأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان دائماً منغمساً في الخير، حائزاً على الكرامات والبركات.. ولكنه يريد أن يقول: إنك يا محمد،

وإن لم تكن تطلب الدنيا، ولكن هذا لا يعني أن لا تكون منعماً فيها بنعيم الفوز بالرضا الإلهي، وبالرعاية الربانية التي تتجلى بالتسديدات والألطاف المستمرة في كل حال ومقام، لأن زهدك في الدنيا قد جعل الدنيا تخضع بين يديك وتلقي بنفسها تحت قدميك. وإنك سوف تتنقل في مراتب الخير التي تتوخاها، وتسعى إليها.. وتتسامى فيها باستمرار حتى في يوم القيامة أيضاً، فالألف واللام في كلمتي الآخرة والأولى للعهد، لأن المقصود هو خصوص الدنيا والآخرة.

فهذه الآية وعد له بتحقيق أهدافه في نصر الإسلام، وظهور كلمة الحق. والدين على الدين كله.. ولو كره المشركون والحاقدون.

**3** ـ إن الناس قد تختلف المعايير لديهم، فإن كان هناك من يرى الخير في لذة الجسد، فإن النبي «صلى الله عليه وآله» يرى الخير في رضا الله، ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾[1]، لأنه هو النعيم الدائم ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ**﴾[2]، والنبي لا يطمع بالفاني والزائل.

**4** ـ إنه تعالى لم يخلق الآخرة فقط، بل خلق الدنيا أيضاً وجعلها مقدمة للآخرة ليكدح الناس في نيل نعيم الآخرة ويتلذذوا بهذا الكدح، وليكون نعيمهم في الآخرة ألذ وأطيب، فإن الآتي بعد الطلب أعز وأطيب من

(1) الآية 72 من سورة التوبة.

(2) الآية 27 من سورة الرحمن.

المنساق بلا تعب، لأن المطلوب هو اللذة الروحية لا لذة الجسد، ولذا كان ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ كما تقدم.

**5** ـ إن للخير مراتب في هذه الدنيا، لكن الأهم منها هو مراتب ودرجات الخير في الآخرة، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يواصل عمله الدؤوب لنيل كل هذه المراتب لينال في الآخرة أعلاها، وأسماها وأسناها..

وإنما كانت درجات الآخرة هي الأسمى، والأسنى، لأن طبيعة النشأة الدنيوية لا تحتمل إلا قدراً محدوداً من الخيرات، سواء فيما يرتبط بتجليات تلك الخيرات في قوالبها، وطبيعة وسائل إظهارها.. أو فيما يرتبط بمدى قابلية الوسائل التي زود بها هذا الكائن البشري للوصول إليها، وللتفاعل معها، في مجال استيعاب آثارها في نطاق الاستفادة منها..

**6**ـ ظهر: أن كلمة «خير» في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ﴾ أفعل تفضيل، لأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يزل منغمساً في الخير، متقلباً فيه منذ خلقه الله، وهو ينتقل من خلال ما يبذله من جهد في مرضاة الله تعالى من حسن إلى أحسن، ومن فضل إلى فضل أتم، ومن خير إلى خير أهم وأعم..

**(لك) لماذا؟!**

وقد يتساءل المرء عن سبب قوله تعالى في هذا المورد بالذات: ﴿خَيْرٌ لَكَ﴾؟! ألم يكن يمكن الاستغناء عن كلمة (لك) بأن يقال: «خير من الأولى»؟!

**ويمكن أن يجاب:**

**أولاً**: لو كانت الآخرة خيراً من الأولى بصورة عامة وشاملة لكل شيء

وكل مخلوق، لكان ينبغي أن يكون النعيم فيها عاماً، حتى للكافر، والظالم والعاصي، وكان ينبغي أن لا يموت الحيوان، ولا يتلاشى شيء مما في الدنيا، بل يجب أن يتحول في الآخرة إلى موجود أفضل، وأبهى، وأتم وأقوى..

ولكن الأمر ليس كذلك، فإن الله أراد أن تكون الآخرة خيراً لمن يستحق هذا الخير، ويتسبب للحصول عليه بما يقدمه من عمل صالح.

ولأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» هو خير العاملين، وأعظم الناس بلاءً وجهاداً، وعطاءً في سبيل الله، ولأنه «صلى الله عليه وآله» لا يزرع إلا الخير، ولا يباشر إلا كل ما هو صلاح وفلاح، فإن حصاده في الآخرة هو محض الخير. ومن الطبيعي أن تكون الآخرة له خيراً من الأولى.

أما أعداؤه ومناوئوه «صلى الله عليه وآله» الذين لا يزرعون إلا الفساد والفتنة والشر، والأذى والصد عن سبيل الله، فإن آخرتهم ستكون عليهم أشر وأضر، وأدهى وأمر من أولاهم..

**ثانياً**: إنه تعالى إنما يخاطب رسول الله «صلى الله عليه وآله» من حيث هو إنسان متمحض في طاعة الله تعالى، وهو رسوله، الذي يواصل مسيرته الجهادية ويقدم التضحيات، ويواجه التهم الباطلة، والأذى في جنب الله تعالى. ولم يزل هؤلاء الناس الذين تذهب نفسه عليهم حسرات يضعون العراقيل أمام دعوته، ويبغون له الغوائل، ويسعون لتفريق الناس عنه، وزرع الشكوك في نفوسهم في صحة ما جاءهم به.

وإنما يخاطبه الله تعالى في هذا المورد بهذا الخطاب ليدفع به كيد هؤلاء

المبطلين، وليعضده ويشد من أزره، ويزيل كل ريب في دعوته ومسيرته، ويحفظ له صورته المشرقة، ويؤكد طهره، وإخلاصه وصدقه..

**مما يعني**: أنه تعالى يريد أن يقول له في هذا المورد بالذات: إنك في مسيرتك، في جهدك، وجهادك من حيث أنت رسول الله، سوف تبقى مسيرة مظفرة تنتقل من نصر إلى نصر، وتتنامى وتتقدم وتقوى وتتكامل في النفوس والعقول باطراد.

وسوف تبقى تحصل على الخير، وستواصل التنقل من حسن إلى أحسن، ومن فضل إلى أفضل، ولا يقتصر الأمر على الحياة الدنيا وحسب، بل ستكون الآخرة أيضاً لك أفضل وأسمى، وأغلى وأعلى، وأتم وأهم من هذه الدنيا.

فتكون هذه الآية بشارة له «صلى الله عليه وآله» بظهور دينه، وبخذلان عدوه، وبوار كيد أعدائه، وبأن دعوته ورسالته سوف تحقق كل أهدافها.. فما على أعدائه إلا أن ييأسوا، ويموتوا بغيظهم، فإن الله متم نوره ولو كره المشركون والكافرون، والحاقدون، والماكرون..

وبذلك تكون كلمة (لك) في هذه الآية المباركة قد أريد بها تكريس معنى الرسولية فيه، فهي إليه تنسب الخير كله في الدنيا وفي الآخرة، وهذا أدعى، وآكد في كبت عدوه، ورد كيده إلى نحره..

مع إشارة ضمنية إلى أن كل خير وكل نعمة يحصل للبشرية، ولسائر المخلوقات، فإنه «صلى الله عليه وآله» شريك فيه، وهو منه «صلى الله عليه وآله»، ويصدر عنه، وينتهي إليه..

# الفصل السابع:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

**بداية وتوطئة:**

وبعد أن قررت الآية المباركة ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾ حقيقة أن الإنسان العاقل هو الذي يتعامل مع الأمور ببعد نظر، وبصيرة ثاقبة، فلا يتلهى بالعاجل الزائل، عن الدائم الباقي، ولا يقنع بالدخيل عن الأصيل، ولا يمل عن النظر في العواقب والنهايات، فرب فائدة عاجلة تعقبها ندامة قاتلة. فالأمور إنما هي بخواتيمها..

فبعد هذه التوطئة اقترب سبحانه من بيان بعض التفاصيل، فقال سبحانه لنبيه: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾.

**ونوضح ما نريد الإشارة إليه هنا في نطاق العناوين التالية:**

**لام القسم من جديد:**

وقد بدأ تعالى كلامه في هذه الآية المباركة: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ بلام القسم، أي أقسم سوف يعطيك ربك.

وقد أبهم سبحانه ما أقسم به، ولم يذكره. ويبدو لنا: أنه قد أبهمه للإيحاء بأهميته وخطره، وعظمته.. وليستحث خيال الإنسان، ليذهب في

تصوره لعظمة ما يريد أن يقسم به، كل مذهب..

فإن من يقسم هنا هو الله تعالى.. والله تعالى لا يقسم إلا بما هو عظيم، من أجل بيان أمر عظيم وبالغ الأهمية، ويريد تعالى صرف الأنظار إليه، أو لأجل إثبات وقوعه وتأكيد حصوله.. لأنه لا يريد أن يبقى في وهم الناس تجاهه أي تزلزل أو ريب.

**(سوف) لماذا؟!:**

وقد قال تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ**﴾ ولم يقل: «سيعطيك»!! فلماذا، يا ترى؟!

**ويمكن أن يجاب:**

بأن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يزل مغموراً بالفيوض الإلهية، والعنايات والألطاف الربانية التي لا تقدر بقدر، ولا تحويها الفكر، ولا يبلغها عقل بشر.. ولم ير في هذا الأمر أي نوع من أنواع الفترة أو الركود، أو الهمود والخمود، ولم يكن يمر في وهمه «صلى الله عليه وآله» أن يحصل شيء من هذا على الإطلاق، بل هو يرى كيف أن هذه العطايا والهبات تتنامى وتكبر وتزداد وتتعاظم باطراد.. وهو على يقين من أن هذا العطاء سيتواصل على مر العصور والدهور..

ولكن الأعداء الذين كانو على علم بهذه الصلة القائمة بينه «صلى الله عليه وآله» وبين ربه، قد أوهموا الناس وأنفسهم بأن ثمة انقطاعاً قد عرض لهذه الصلة حين ادعوا أن محمداً قد ودعه ربه وقلاه..

فجاء قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ليعلن كذبهم في دعواهم هذه، مؤكداً على بقاء واستمرار هذا العطاء الإلهي لنبيه، وإن رغمت أنوف الحاسدين والحاقدين.

ولو أنه تعالى قال: «سيعطيك ربك» فقد يروق لهم أن يفهموا: أنه تعالى يريد أن يعطي وعداً لنبيه بأن يمنحه شيئاً كان قد حرمه منه.

ولعل من يفهم الكلام بهذه الطريقة يصر على أن هذا العطاء سيكون مرة واحدة، حيث لا شيء يدل على أنه سوف يتواصل، أو على أنه سيتكرر بعد ذلك، ولو لمرة واحدة أيضاً..

ولكنه حين جاء بكلمة «سوف» بعد تقديم الحديث عن الآخرة والأولى، وقرر أن الآخرة هي الأفضل، وهي خير له «صلى الله عليه وآله»، فإنه يكون قد وصل الماضي بالحاضر، ثم بالمستقبل، وجعل نقطة الارتكاز فيه أقصى وأبعد غاياته، ليفيد الاستمرار ليس في الدنيا وحسب، وإنما في الآخرة أيضاً، لأن كلمة «سوف» قد ارتكزت على أمرين:

**أحدهما**: أن المسيرة مستمرة ومستوعبة للدنيا كلها، على أن تصل هذه الدنيا بالأخرة أيضاً..

**الثاني**: أن لهذه المسيرة منحى تصاعدياً في الاتجاه الإيجابي، الذي ينتج دائماً الخيرية، ويحقق معنى التميز، والأفضلية، لتكون الآخرة في نهاية المطاف هي الأمثل، والأولى والأفضل..

**ويؤكد ذلك**: أنه ألمح إلى القسم باللام في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ﴾، ليدلنا

على أن ثمة قراراً إلهياً قاطعاً باتصال الرعاية والعطاء لرسوله «صلى الله عليه وآله» في كل وقت وحين.

**وقد رسخ هذه المعاني:**

**أولاً**: أنها جعلت العطاء في أثره ونتائجه مرتبطاً بصورة أساسية برضا رسول الله «صلى الله عليه وآله». وإذا كان رضاه ينطلق من أهدافه التي هي أهداف الرسالة التي تنطلق من الغايات الإلهية القصوى للبشرية جمعاء، فهو يريد إذن ما يريده الله تعالى، كما أن ما يريده هو تحقيق آمال جميع أنبياء الله، فإن ما يرضيه هو ما ينجح هذه الأهداف كما أشير إليه بقوله: «لك» في قوله: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ**﴾، وأشارت إليه كاف الخطاب في: «يعطيك» وفي قوله: «ربك»..

**ثانياً**: إن كلمة ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ**﴾ تشير إلى أن هذا العطاء سوف لا ينتهي بانتهاء الدنيا، بل هو يتواصل ويتنامى حتى في الآخرة أيضاً.

**ثالثاً**: قد ظهر أن هذا العطاء لم يحدد في الآية، بل أطلق ولم يذكر له أي متعلق ليشمل جميع أنواع الخير، والبركات، والغنى، بكل آفاقه ومجالاته، وتجلياته، ومنه نفس الخلود في النعيم أيضاً. كما أنه يشمل العطاء المعلن والخفي، والعطاء التكريمي، وإعطاء الكمالات والفيوضات الروحية والنفسية الباطنة، وحتى ما يشمل التنزيه عن كل عيب ونقص.

**رابعاً**: إنه قد وطَّأ لهذا وذاك بتقديم الحديث عن خيرية الآخرة له عن الأولى.. وتقديمها هذا قد دلَّ على أن المقصود هو جعلها منطلقاً للعطاء ومبدأً ومنشأً له..

وبذلك تكون كلمة «سوف» قد جاءت لتأكيد المسير في هذا المسار، لتكون النتيجة هي تواصل العطاء، وتناميه وتكامله المطرد.. وهذا ما يبطل كيد أولئك الحاقدين، ويمحق أمانيهم، ويسفه أحلامهم..

ولو أنها أبدلت بالسين، فقيل: «سأعطيك» لم تفد هذا المعنى، بل قد يفهم منها مجرد الوعد بالعطاء في وقتٍ ما فيما يأتي.. وربما يحدث ما يمنع من الوفاء بالوعد، وقد لا يحدث.

أما كلمة «سوف»، فهي وإن كانت قد دفعت بهذا الوعد إلى المستقبل البعيد، ولكنها بعد أن استثمرت المعنى الذي كرسته عبارة: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾، وأوضحت أن تحقيق هذا التنامي والتكامل المستمر والمطرد من خلال تواصل العطاء كانت كلمة سوف هي الخيار الصحيح في هذا المقام.. لأنها هي التي تتوافق مع معنى رسوليته «صلى الله عليه وآله»، ومع أهدافه، وما أهَّله الله تعالى له، وما يتوخاه منه من عمل وجهاد، وإنجازات في هذه الحياة كلها، وفي النشأة الأخرى أيضاً.

**مما يعني**: أن هذا العطاء الذي يرضي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لا يمكن أن يمحضه إياه في الآخرة، ويقطعه عنه، أو يمنعه منه في الدنيا.

**حد الرضا!! ما هو؟!:**

وبعد أن تأكد لدينا أن العطاء الإلهي لرسول الله «صلى الله عليه وآله» لم ينقطع، لا قبل ولا بعد نزول سورة الضحى، ولم يزل «صلى الله عليه وآله» مغموراً بهذا العطاء، ولم يشك أبداً بأنه سوف يستمر في الدنيا،

وسيتضاعف في الآخرة، فذلك يعني: أن كلمة «سوف» قد جاءت لتؤكد هذا الاستمرار، لا لتعطي وعداً باستحداث عطاء لرسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد انقطاع، لأن هذا الانقطاع لم يحدث قط..

وكذب ما يدعيه الشانئون والحاقدون من ذلك، مشهود ومحسوس، فما بالك بدعوى تبدله بهجر، أو بأشد البغض، كما زعموا؟!

بل الأمر لا يقتصر على استمرار هذا العطاء، بل هو يتجاوزه ليكون استمراراً متنامياً، يتكامل ويتضاعف إلى أن يبلغ به «صلى الله عليه وآله» حد الرضا.

**ومن الواضح**: أن ما يرضي رسول الله «صلى الله عليه وآله» هو تحقيق الأهداف الإلهية، وحفظ واستثمار جهود الأنبياء، وتحقيق آمالهم، وآمال الشهداء والصالحين..

لأن المخاطب بسورة الضحى هو محمد النبي والرسول، الذي هو في ظل الرعاية الإلهية، والهداية الربانية. وهذا هو سبب تواصل وتنامي وتكامل، وازدياد العطاء الإلهي له، لأنه عطاء يراعي الله تعالى فيه رضا الرسول، المرهون بإنجاز مسؤولياته، وبلوغه أهدافه التي هي بحجم الحياة كلها، بل بحجم المسيرة الكونية في الدنيا وفي الآخرة.

**البشارة تضعف وتقوي:**

**فظهر**: أن هذه الفقرة تتضمن بشارة عظيمة لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، لا بد أن تنهد لها عزائم أعدائه، وتصيبهم بالإحباط، وتستلب بسمة الشماتة والحقد عن شفاههم، وتنطفئ بها إشراقة الابتهاج من وجوههم،

وتستبدلها بالتمعر والتقبض، وتتحول إلى وجوه مربَّدة وكالحة، حائلة الألوان، وظاهرة الأحزان..

وتمنح الأولياء، الصلابة في العزائم، والسكينة في القلوب، وتلبسهم سرابيل الوقار، والسلام، ويتوهج في وجوههم نور الإيمان، وتنفرج في جبين كل مؤمن أسارير الرضا والطمأنينة واليقين، بتحقق هذا الوعد الإلهي لرسوله وللمؤمنين..

**وذلك يعني**: أن أي انقطاع لهذا العطاء لن يكون، لا في قريب الزمان ولا في بعيده، لأن الانقطاع لا يتوافق مع هذا التفضُّل والامتنان الإلهي.

## يعطيك ربك!!:

ويزيد هذا المعنى رسوخاً وتجذراً ووضوحاً نسبة هذا العطاء إلى الذات الإلهية باعتماد معنى الربوبية، في قوله تعالى: ﴿**يُعْطِيكَ رَبُّكَ**﴾ الذي يلمح إلى أن هذا العطاء ليس عشوائياً، ولا هو هبة عارضة، بل هو عطاء يحمل معه خصائص تنموية تناسب حال وحاجات واستعدادات الشخص الموهوب، لأنها تحمل معها معنى التربية، والتنمية، والزيادة المطردة، والكرامة، ورفعة الشأن، والقرب والزلفى، وتحمل معنى الرعاية من موقع الحرص، والمحبة واللطف، فإن ذلك كله يأبى التراجع أو الانقطاع، مهما كان قليلاً وضئيلاً، وقد أكدت هذا كله الخصوصية التي كرستها له «صلى الله عليه وآله» كاف الخطاب في كلمة «ربك»، والعناية المتوجهة إليه، وبلا مشاركة من أحد..

**ولذلك لم يقل**: يعطيك الرب، ولم يقل: يعطيك الله، فإن لفظ الجلالة مفعم بمعاني الهيبة، والكبرياء الإلهي، والعظمة.. ونحو ذلك. فالاستفادة من أمثال هذه الكلمات، وهي كلمة «الله»، وكلمة «الرب»، من شأنه أن يجعل المخاطب أحد أفراد جماعة آخرين يأخذ ـ كما يأخذ غيره ـ قسطه من مضمون الخطاب بحسب الحال التي هو عليها، وقد لا يكون فيه ما يفرض امتيازه عنهم.

**يضاف إلى جميع ما قدمناه**: أن هذا العطاء إذا كان يتخذ صفة التنامي والازدياد المطَّرد، فلا بد أن يتناسب مع ما يتنامى في شخصية الرسول. لأن المفروض أنه يحمل معه خصائص تفيد في أحداث الزيادة والانتقال من الحسن إلى الأحسن، وليس ناظراً إلى الخصائص الثابتة التي لا تقبل التطور، ولا النمو، كما في طول قامته أو لونه، أو نحو ذلك، مما يصل إلى حد معين، ويقف عنده، فلا حاجة إلى إعطائه ما له صلة بهذا النوع من الصفات.

وقد تكون له صفات يراد لها أن تبقى على حالها، ولا يحتاج إلى الزيادة عليها، كحاجته إلى اللباس الذي يستر بدنه، وإلى الماء الذي يرفع عطشه، وإلى الطعام الذي يحفظ له حياته.. ونحو ذلك.. فإعطاؤه زيادة على ما يحتاج إليه في ذلك يكون بلا فائدة ولا عائدة.

وقد يكون فيه ما يحتاج إلى تنمية وزيادة، وتكون الزيادة من موجبات كماله ويزيد في سعادته، ويؤكد نجاحه وفلاحه، ويعطيه المزيد من العزة والكرامة والسؤدد. كما لو أعطاه ما يزيده فضلاً، وعلماً، وطهراً، وحسن خلقه، أو ما ينعش روحه، ويفرح قلبه، ويصفي نيته، ويبعد عنه الأدواء

والأسواء، ويزيد في كرامته، وشهامته، ومحبة الله تعالى له، ويقربه منه تعالى، ويعطيه الحظوة عنده والزلفى لديه. ويبلغه أمانيه، وما ينسجم مع أهدافه ومسؤولياته وموقعه في الدنيا والآخرة..

وهذا هو ما يرضي الرسول. وهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾.

وقد أطلق تعالى الإعطاء عن كل قيد فلم يقل له: يعطيك علماً، أو مالاً، أو.. أو.. ليشمل كل ما يحبه ويريده الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» وفي كل زمان ومكان، وفي كل حال، لأن هذا العطاء المطلق هو الذي يرضي رسول الله «صلى الله عليه وآله». وهو الذي يلبي حاجاته في مهماته الكبرى في الدنيا وفي الآخرة، وهي الحاجات التي ترتبط بجميع المخلوقات، والتي يحتاجها من حيث هو رسول ومسؤول، ومنه الخير مطلوب ومأمول.

**النبي رازق وكافل في الحياة والممات:**

فإطلاق العطاء هنا ليشمل كل تفضل، وكل خير، وكل كرامة، وكل الكمالات وكل النعم. وكل ما يحتاجه «صلى الله عليه وآله» في تعامله مع المخلوقات، وجميع الكائنات في الدنيا وفي الآخرة، ولذا لم يقيد العطاء بأنه الجنة مثلاً، أو الحور، أو القصور الخ.. ولا قال له سأعطيك المقام الفلاني، أو المال، أو المقام، أو السلطة، أو الشفاعة.

لأنه تعالى يعلم أنه «صلى الله عليه وآله» لا يطلب إلا ما يرضي الله، ولا يحب إلا ما يحبه الله.. وينفع عباد الله، وسائر مخلوقاته، وينسجم مع مهماته

«صلى الله عليه وآله»..

فرزق العباد في قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[1]، والشفاعة التي ورد في الروايات: أنها سوف تعطى له هي بعض ما يرضيه «صلى الله عليه وآله»..

إنه «صلى الله عليه وآله» يريد كل ما يعينه على القيام بالمهمة العظمى التي أوكلها الله إليه، وهي الارتقاء بالمخلوقات إلى أعلى درجات الكمال والسعادة والرفعة، والقرب من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

ولأجل ذلك جعل الله تعالى له ولعلي موقع الأب الكافل، والرازق والمعطي، والمغني، والمقني، الحاني، والمدبر للأمة كما أشير إليه في قوله «صلى الله عليه وآله»: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»[2].

فهو أب للأمة الممتدة إلى يوم القيامة، وليس الأب لجيل معين منها. وقد قال تعالى عنه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**

---

(1) الآية 74 من سورة التوبة.

(2) راجع: البرهان (تفسير) ج1 ص369 ومعاني الأخبار 52 و 118 وعيون أخبار الرضا ج2 ص85 و (ط مؤسسة الأعلمي) ج1 ص91 وعلل الشرائع ص127 وكمال الدين ص261 والأمالي للصدوق ص65 و 411 و 755 وبحار الأنوار ج16 ص95 و 364 وج23 ص128 و 259 وج26 ص264 و 342 وج36 ص6 و 9 و 11 و14 و 255 وج38 ص92 و 152 وج39 ص93 وج40 ص45 وج66 ص343.

**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[1]. والمجتمعات البشرية كلها بالنسبة إليهما عائلة واحدة: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[2]. لها أب واحد ومرب واحد، والرابط بين أعضاء هذه العائلة هو الأخوة المسؤولة والمؤثرة. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم**﴾[3].

وهذا كله يفسر لنا السبب في أن النبي «صلى الله عليه وآله» تنام عيناه، ولا ينام قلبه، وفي أنه يرى من خلفه كما يرى أمامه، وفي أنه يرى أعمال العباد، وتعرض عليه أعمالهم وأحوالهم، ويعرف ما يكون منهم.

ولأجل ذلك كان لجميع الناس الحق في أن يطلبوا من النبي ومن الإمام بعد موته ـ كما في حال حياته ـ حاجاتهم، وحل مشاكلهم، وشفاء مرضاهم، لأنه «صلى الله عليه وآله» رازقهم، والمعني بشؤونهم، وله جاه عظيم عند الله، فإذا شفع بهم إليه قبل الله شفاعته، وأجاب طلبته..

فهم شفعاء ووسطاء لنا في الدنيا وفي الآخرة على حد سواء.

وكما يصح أن يقول الفقير للغني: أعطني مما أعطاك الله، ولا يكفر بقوله هذا.. كذلك يصح أن يقول له: أعطني وحسب، ولا يكون كافراً أيضاً..

---

(1) الآية 128 من سورة التوبة.

(2) الآية 92 من سورة الأنبياء.

(3) الآية 10 من سورة الحجرات.

وإذا جاز للفقير أن يطلب من الغني أن يعطيه، فيجوز لنا أيضاً أن نطلب من النبي، والإمام أن يعطيانا، ونقول له: أعطنا مما أعطاك الله. ولو قلنا له: أعطنا. ـ فقط ـ لم نكفر أيضاً..

ولا فرق في ذلك بين أيام حياة النبي «صلى الله عليه وآله»، وبعد وفاته، فنحن نعلم أن النبي بعد موته أيضاً حي يرزقه الله من فضله، كالشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون.. فهل نستكثر ذلك على سيد الكائنات، وأشرف المخلوقات، والشاهد عليهم؟!

وهو يسمع كلامنا، ويرى مقامنا كما يراه الأحياء، وكما يراه الشهداء.

وحين خاطب النبي «صلى الله عليه وآله» قتلى المشركين الذين كانوا في القليب (أي البئر) في بدر، وكذلك علي «عليه السلام» حين خاطب طلحة وغيره من القتلى في حرب الجمل، وقد قرَّرا أن الموتى يسمعون ما يقال لهم حتى لو كانوا كفاراً، ولكنهم لا يستطيعون الجواب..

وقد مر علي «عليه السلام» بمقبرة وهو راجع من صفين، فخاطب الأموات بقوله: «يا أهل القبور الموحشة».. إلى أن قال لهم: «أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم»؟!

ثم التفت إلى أصحابه، فقال: «أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم: أن خير الزاد التقوى»[1].

---

(1) نهج البلاغة، قسم الحكم، الحكمة رقم 130.

**وفي روايات أهل السنة**: أنك إذا سلمت على رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأنت قريب منه رد عليك، وإن سلمت عليه وأنت بعيد، فهناك ملك موكل بإيصال سلامك إليه[1].

**وبذلك يظهر**: أن لا معنى للاعتراض على من يطلب من رسول الله «صلى الله عليه وآله» حاجاته المالية أو غيرها، أو يطلب منه التوسط عند الله لشفاء مريضه، أو حل مشكلته! وغير ذلك..

**ويتضح أيضاً**: أنه ليس المراد من قوله تعالى هنا: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾، أن الرسول غاضب، ويريد الله تعالى أن يرضيه بهذا العطاء، إذ ليس الرضا في مقابل الغضب هنا، وإنما المراد بالرضى هو الوفاء بالمطلوب.

**فهو من قبيل قولك**: رضيت بالله رباً، وبمحمد «صلى الله عليه وآله»

---

(1) راجع: سبل الهدى والرشاد ج12 ص358 و 427 وكفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (الخصائص الكبرى) ج2 ص280 وكنز العمال (مؤسسة الرسالة) ج1 ص502 و 504 و 492 و 498 والتاريخ الكبير للبخاري ج6 ص416 ومجمع الزوائد ج10 ص162 وشرح سنن النسائي للسيوطي ج4 ص110 والترغيب والترهيب ج2 ص499 وإمتاع الأسماع ج11 ص69 و 70 وراجع: الشفا للقاضي عياض ج2 ص79 وفتح الباري ج6 ص352 وعون المعبود ج6 ص21 و 22 وشعب الإيمان للبيهقي ج2 ص218 والجامع الصغير ج2 ص618 .

نبياً، وبعلي «عليه السلام» إماماً.. أي وجدت كل مطلوبي في الله تعالى فيما يرتبط بمعنى الربوبية، ووجدت كل مطلوبي في محمد «صلى الله عليه وآله» فيما يرتبط بمعنى النبوة والإمامة، وفي علي «عليه السلام» فيما يرتبط بالإمامة والوصاية؛ فهم الأوفى والأتم والأكمل، والأشرف، والأغلى والأعلى، والأفضل. وهم أقصى الغايات، ومنتهى الآمال، وتمام المراد، وغاية الرضا.

وهذا هو ما أشير إليه بقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه**﴾[1]. أي أنهم وجدوا الوفاء التام بالوعد، والعهد.

كما أنه تعالى قد وجد أعمالهم التي قدموها صحيحة ـ ووافية بالمطلوب. إذ هي في منتهى الخلوص من الشوائب والنقائص، وسليمة من العاهات.

وليس المراد الرضا في مقابل الغضب، فإنه نقص فيهم، لا تصح نسبته إلى الأنبياء فيما يرتبط بالله تعالى.

## ما يرضي رسول الله ′ :

ويبقى هنا سؤال عما يرضي رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالتحديد.

**ويمكن أن يجاب:**

بأن رضى رسول الله «صلى الله عليه وآله» امتداد لرضى الله تعالى، وتحقيق ما يريده سبحانه منهم، وهو الطاعة لله ولرسوله التي تؤدي بهم إلى السعادة والخلود في النعيم، وأن يكونوا كما أراد الله تعالى في غاية الصفاء،

---

(1) راجع: الآية 119 من سورة المائدة، والآية 100 من سورة التوبة، والآية 22 من سورة الأحزاب، والآية 8 من سورة البينة.

والنقاء، والنجاح، والصلاح والفلاح.

وأن يبلغوا الغاية في أخلاقهم، وميزاتهم، وصفاتهم الإنسانية، وأن ينالوا أسمى وأسنى مقامات القرب، والشرف، والزلفى عند الله تعالى.

وقد سخر الله تعالى لهم كل ما في هذا الكون، وأراد منهم أن يعمروه بأعمالهم، وبجهدهم وجهادهم. لكي يسعدوا به، وليكون لهم عوناً، وليعينهم على بلوغ الغايات، ونيل الأمنيات..

**التكليف كرامة إلهية:**

وبالرغم من أنه تعالى قد بذل لبني الإنسان من عطاياه، ومنحهم من ألطافه وتوفيقاته، ما لا يمكن الإحاطة به، فإنه سبحانه أراد أن يشرفهم ويكرمهم، ويفضلهم على سائر مخلوقاته، بوضع قلم التكليف عليهم، وجعلهم أهلاً لخطابه، وموضعاً لكرامته، وجعل لأعمالهم قدراً وقيمة، ورهن بها مسيرهم ومصيرهم. وقرن بها مثوبته وعقوبته.. علماً بأن جعل المثوبات والعقوبات قد كان لمصلحة هذا العبد، لأنها من سبل إصلاحه، ولإيجاد الداعي لديه للاستقامة على طريق الحق والخير والهدى، والثبات أمام تسويلات شياطين الإنس والجن، ولجم دواعي الشهوات والغرائز والأهواء في نفسه.

مع أنهم في الأساس لا يستحقون المثوبة حتى لو أطاعوه، لأنهم مملوكون له، وما بهم من نعمة فهو تعالى مصدرها، وإليه مآلها.. وهل يستحق العبد المملوك من سيده إذا أطاعه مثوبة وعطاء؟!

فكيف إذا كان هذا السيد ليس فقط لا يحتاج إلى عمل عبده، بل إن عبده لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بفيض منه؟!.. فإن ما يعطيه سيده إياه إنما هو محض تفضل منه، ورفق به، ورحمة له، وحدب عليه؟!

**أو فقل**: إن طاعتهم لخالقهم هي مقتضى مالكيته وخالقيته لهم، وغاية ما هناك أن تحجب هذه الطاعة العقوبة عنهم، وأما أن تكون سبباً للنعم، ولدخول الجنان والخلود فيها، فذلك غاية الإحسان منه تعالى لهم.

**والخلاصة**: إنه تعالى قد تفضل على عباده بنفس جعله أعمالهم منشأً لاستحقاق المثوبة. بل ضاعف لهم هذه المثوبات العظيمة أضعافاً كثيرة، فأعطى الكثير الكثير، والثواب الجزيل على أقل القليل من العمل. بل جعله ﴿**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾[1]، وجعله نعمة ﴿**لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ**﴾[2]. مع أنهم لا يقدرون على القيام بأي عمل إلا بفضل منه، وبإقدارهم عليه، وبتوفيقهم لهم، بل هو قد جعل الحسنة التي تصدر من عبده ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[3].

بل قد تصبح الحسنة بعشرة آلاف، أو بمئة ألف، أو بما لا يحصيه إلا الله تعالى..

---

(1) الآية 108 من سورة هود.

(1) الآية 33 من سورة الواقعة.

(1) الآية 261 من سورة البقرة.

# الفصل التاسع:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى **وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى**)

**توطئة.. وتمهيد:**

وبعد الوعد الإلهي الكبير الذي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ جاء التأكيد عليه بما يصلح دليلاً قاطعاً على حصوله.. وهو ما تضمنته الآيات التالية من استفهامات وأوامر، إلى آخر سورة الضحى، ثم ما تبعها في سورة «الشرح» الآتية بعدها.

فإن ذلك كله يدل على حتمية حصول هذا العطاء الجزيل والهائل، المتمثل بتحقق الأهداف الإلهية من خلق الخلق، ومن إبداع هذا الكون كله. وهي تبلور الآمال والأماني الكبرى التي كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتوخاها في هذه الحياة الدنيا، وفي الآخرة على حد سواء..

وإذا أردنا أن نلم ببعض ما نحسب أن هذه الآية المباركة قد أشارت إليه، فنقول:

**الاستفهام التقريري:**

بدأت الآيات هنا بالاستفهام التقريري حيث قال: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾؟!

**ويلاحظ:**

**1** ـ أن هذا الاستفهام يهدف إلى إسماع الناس الجواب عن هذا السؤال.

**2** ـ إنه يهدف إلى جعل الجواب ماثلاً أمام عيني المخاطب والسامع.

**3** ـ إنه تعالى لم يستدل على تحقق ما يعد به بأمور عقلية، أو فلسفية. بل استدل بأمور واقعية رآها الناس، ولمسوها وعاشوها بأنفسهم، كما عاينها ولمسها رسول الله «صلى الله عليه وآله». فلا مجال للريب ولا للبس فيها.

وقد أشرنا إلى أن تحويل ما هو ذهني تجريدي إلى شأن حياتي، وواقع معاش يحس به الناس ويعيشونه، ولا يلقى إليهم من خارج.

إن هذا التحويل هو طريقة يمتاز بها القرآن، والإسلام بصورة عامة، ويعتمدها في الحوارات بصورة مكثفة في البيان الإقناعي، ويمكن تلمسها بصورة واضحة في كلام الأنبياء والأوصياء «صلوات الله عليهم أجمعين». لأن الناس يتأثرون بالواقع الملموس والمعاش، ويتفاعلون معه أكثر من تأثرهم بالمعادلات العقلية، والأمور الذهنية، والمفاهيم، والصور والأفكار.

**فنلاحظ هنا:** أنه تعالى لم يقل لنبيه: أنا الذي خلقتك، وأكرمتك بالنبوة والرسالة، ولا يمكن أن أتخلى عنك، بل علي أن أحميك، وأن أحفظك، وأوصلك إلى غاياتك.

والسبب في هذا التأثر الظاهر بالأمور الحياتية أكثر من تأثره بالمعادلات العقلية، والصور والمفاهيم والأفكار التجريدية: أن الإنسان حين يباشر الأمور الحياتية، فإن الصور التجريدية تمحى من ذهنه، وتستبدل بصور المشاهدات والمحسوسات، والأمور العينية ليصبح تأثيرها عليه هو

الأقوى، وهو يأنس بها، ويعيش معها، ويندمج فيها..

أما الصور والمفاهيم والأفكار، فيقتصر تفاعله معها، وتأثره بها على وقت استحضارها.

وهذا ما نجد تطبيقه العملي في مورد هذه الآيات المباركة بالذات، فقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد عاش هذا اليتم في نفسه، وشعر بتبعاته ووطأته، وآثاره، وعاشه الناس معه، ورأوه، وعاينوه، وتأثروا به، وأحسوا به فيه..

فهذه الصور التجريدية ليس لها وعاء ولا تجسد، ولا انطباق خارج دائرة وجودها الذهني. أما الصور العينية، فلها واقع ماثل أمام أعين الناس، يمكن العودة إليه مرة بعد أخرى، والاحتكاك به، وانتزاعها منه.

ولا مجال لاستبعادها، أو زوالها بسهولة، لتحل محلها أية صورة أخرى.

وهذا يفسر لنا كيف أن الصورة الواقعية المعاشة، والمحسوسة سرعان ما تترك أثرها على الموقف والحركة والسلوك. ولأجل ذلك بادرت الآيات التالية إلى إصدار الأوامر العملية له «صلى الله عليه وآله»، حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

أما الصورة التجريدية، فتحتاج لكي تصل إلى حد التأثير في الموقف والسلوك إلى جهد وتصرف وابتكار..

## (أَلَمْ يَجِدْكَ):

**وهنا أسئلة كثيرة تطرح وتحتاج إلى أجوبة، نذكر منها على سبيل المثال:**

**1 ـ** أنه تعالى قال: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ**﴾، فلماذا لم يقل: أما وجدك مثلاً؟!

**2 ـ** لماذا عبر بالوجدان، ولم يقل: ألم تكن يتيماً فآويتك؟!

**3 ـ** لماذا قال: ﴿**يَجِدْكَ**﴾ ولم يقل: يوجدك مثلاً؟!

**4 ـ** ما الرابط بين الإيواء واليتم، فإن ما نعرفه هو أن اليتيم يحتاج إلى الكافل، وإلى الراعي، وإلى الحنان، وإلى الاحتضان والعطف، وما إلى ذلك؟!

**5 ـ** هل كان الله تعالى فاقداً لنبيه «صلى الله عليه وآله»، ثم وجده؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟!

**6 ـ** لماذا قال: ﴿**فَآوَى**﴾. ولم يقل: فآواك..

وأسئلة أخرى..

## نسبة الصفات والأفعال إلى الذات الإلهية:

**ونحن نعلم**: أننا إذا قلنا: قال الله تعالى كذا، أو سمع، أو فعل كذا، فذلك لا يعني أنه قد قال ذلك بلسان، وشفتين، وبصوت، أو فعل ذلك بيد، أو سمع بأُذن، وما إلى ذلك، فإن ذلك من جوارح المخلوقات، وليس لله جارحة. وإذا قلنا: فعل الله تعالى الشيء الفلاني، فليس معنى ذلك أن فعله يشبه أفعالنا نحن البشر من قريب، أو من بعيد، بل هو منزه عن مجانسة مخلوقاته، وعن أن يشبه شيئاً، أو أن يشبهه شيء.

**وهكذا الحال في قولنا**: غضب الله، أو رضي، فإنه غضب أو رضى

يتناسب مع جلاله وعظمته، وجبروته، ومع صفاته الألوهية، وليس غضبه أو رضاه انفعالاً نفسانياً كما هو الحال في رضانا وغضبنا نحن البشر. وهكذا يقال بالنسبة لقولنا: الله رؤوف أو رحيم، أو أنه يحب التوابين، ويحب المتطهرين، فإنه ليس انفعالاً نفسانياً، كما هو الحال في حب الناس لبعضهم، أو لأبنائهم، ورأفتهم بهم، ورحمتهم لهم، وما إلى ذلك.

**الوجدان والوجود:**

**وإذا قيل**: فلان وجد كذا، فذلك يعني أن وجدانه كان بعد الفقدان.

**أما إذا قيل**: وجدك الله يتيماً أو ضالاً أو عائلاً، فأغناك، أو آواك، أو هداك، فليس وجدانه تعالى عن فقدان للشيء، أو بعد غيبته عنه. فإنه تعالى يجل عن ذلك.

فظهر أن وجود الأشياء ينفك عن وجدانها لدينا، أي أنها قد تكون موجودة في نفسها ولكنها مفقودة بالنسبة إلينا.. فإذا وجدنا، فالوجود سابق ووجداننا لها يكون لاحقاً.

أما بالنسبة لله، فإن وجودها لا ينفك عن وجدانها. فليس بين وجودها ووجدان الله تعالى لها أي انفكاك مهما كان.

وإن كان العقل قد يجعل هنا فرقاً تحليلياً بين الوجود والوجدان، ويفصل بينهما في التصور الذهني، بهدف ترتيب معقولاته في وعاء التصور والتعقل، ليتصرف فيها بصورة أكثر سلاسة وسلامة، وانضباطاً..

**فمثلاً**: إذا كان الكتاب فوق المنضدة، فالفوقية والتحتية توجدان في آن واحد، والأبوة والبنوة، والأخوة، والعمومة، والخؤولة، توجد في لحظة الولادة من دون سبق زماني لأي منها على الآخر.. وإن كان العقل في نطاق الوجود الذهني يجعل فواصل وحدوداً، ويجعل تراتبية بين هذه المفاهيم، ليتمكن من التصرف فيها بانتظام.

وهكذا الحال بالنسبة للوجود والوجدان بالنسبة إليه تعالى، وهو نظير ما لو أخذ شخص المفتاح ووضعه في القفل وأداره، فحركة المفتاح وحركة اليد متزامنة. وهي حركة واحدة في الواقع العملي، ولكن العقل في تحليلاته، وفي ترتيبه للصور الذهنية، وتعقله لها يجعل حركة اليد في رتبة سابقة على حركة المفتاح، مع أنهما في الواقع الخارجي في حركة واحدة، وفي آن واحد..

والأمر هنا في هذه الآية المباركة من هذا القبيل، فإنه في حال تبلور وجود رسول الله «صلى الله عليه وآله» على صفة اليتم من قبل الأب، فإن الله تعالى كان واجداً له على هذه الصفة في أول لحظة وجوده. ولم يغب أمره هذا عن الله تعالى في أية لحظة على الإطلاق. وهذا هو السبب في أنه تعالى جاء بالفاء في قوله: ﴿**فَآوَى**﴾، ليدل على أن الإيواء كان متصلاً بحصول اليتم، ولم يحصل أي فصل بينهما، لأن الفاء للتعقيب بلا فصل. والتي تشير إلى الفصل الزماني هي كلمة «ثم»، التي لم تذكر في هذه الآيات.

فظهر أن الإيواء قد جاء في لحظة الحاجة إليه، وهي أول لحظة حصول اليتم بموت الأب، ووجود الابن.

كما أن الهدى قد حصل في لحظة الحاجة إليه، وهي لحظة وجوده «صلى الله عليه وآله».

والإغناء قد حصل في لحظة تبلور الحاجة.

ولا يمكن أن يقال: إن الله تعالى لم يكن عارفاً بيتمه، ثم لما وجده وعرف به آواه، لأن الله تعالى يستحيل أن يفقد نبيه منذ خلقه.. ولا يصح أن يقال: إنه تعالى لم يكن ـ والعياذ بالله ـ عارفاً بضلال نبيه، ثم لما عرف بضلاله هداه إلخ.. لأن النبي «صلى الله عليه وآله» لا يمكن أن يضل، كما أن الله تعالى يرى رسوله في نفس لحظة تبلور وجوده، فيراه بحاجة إلى الإيواء، وإلى الهدايات وإلى العطاء فيمنحه ذلك كله في نفس تلك اللحظة، فيؤويه، ويمده بالهدايات بجميع أنواعها، ويفيض عليه كل ما يحتاج إليه في هداية البشر، ويعطيه ما يسدُّ حاجاتهم، ويحل مشكلاتهم، ويوفر السعادة والغنى لهم.

فالإنفكاك بين وجوده «صلى الله عليه وآله»، ووجدان الله تعالى له، وبين الضلال والهدى والعيلولة والإغناء إنما هو في نطاق التصور الذهني، والتحليل العقلي، لحاجة العقل إلى هذا التفكيك في مدركاته، ليتمكن من التصرف فيها بصورة سليمة، وقويمة، لحاجته إلى حسن ترتيبها في مقام الاستنتاج في إجراء العملية الفكرية بيسر وسهولة، ولا يوجد أي انفكاك أو ترتبٍ في الواقع الخارجي.

ولأجل الدلالة على هذا الانفكاك عن الزمان لم يقل: ألم تكن يتيماً فآويتك، إذ لا يوجد ما يدل على انه قد آواه حين تحقق اليتم.. فلعل زماناً

قد فصل بين اليتم وبين الإيواء.

**والخلاصة**: أنه «صلى الله عليه وآله» لم يمر عليه زمان كان فيه ضالاً، أو عائلاً، أو محتاجا إلى الإيواء.. لأن الله منحه ذلك كله لحظة تبلور وجوده على صفة الحاجة إلى هذه الأمور، فأفاضها عليه من دون أي فصل زماني بين الحاجات وبين العطايا والإفاضات، فلا ضلال سابق وهداية لاحقة.

وهذه الرعاية الإلهية التامة تدل دلالة واضحة على كذب ما يدَّعيه الجاهلون، والمعادون له، من أن الله تعالى قد ودَّع نبيه، وقلاه، أي هجره، أو أبغضه أشد البغض، إذ من غير المعقول أن يصدر من النبي الذي يحظى بهذا القدر من العناية الإلهية أن يتخلف عن مواضع الرضا الإلهي، ولا يمكن أن نتوقعه إلا باذلاً نفسه في مرضاته مجاهداً في سبيله سبحانه..

ومن كان هذا حاله، وهذه هي محبة الله تعالى له، ودرجة اهتمامه به قبل أن تظهر منه كل هذه المزايا، وقبل أن يقدم كل هذه التضحيات، فهل يعقل أن يتركه، وأن يبغضه ويهجره بعد أن تحققت طاعته له، وظهرت منه كل هذه التضحيات في سبيل مرضاته؟!

إن من يظن هذا أو ذاك بالله تعالى، وبرسوله الأكرم «صلى الله عليه وآله» لا يمكن أن نتصوره إلا مخذولاً، وإلا مخزياً ومرذولاً، قد طبع الله على قلبه، وغرق في بحار موبقاته، وآثامه. حيث يكون مجترئاً على الله، هتاكاً للحرمات، خواضاً في ظلمات الضلالات، ناسجاً للأباطيل، معتمداً للأضاليل.

**لماذا (فَآوَى)؟!:**

أما فيما يرتبط بسبب اختيار معنى الإيواء لليتيم، دون سائر حاجات

الأيتام، فنقول في توضيحه:

لقد عالج الله تعالى في هذه الآية، أو فقل: في هذه السورة حال اليتيم بالإيواء.. فالسؤال هو:

ما المراد بالإيواء هنا؟! هل هو مجرد الإنزال في المنزل ليلاً، أو نهاراً[1]. كما ذكروه في معناه؟!

وهل مشكلة اليتيم هي فقط حاجته إلى المنزل، أو إلى الإيواء فيه؟!

وهل كل يتيم يحتاج إلى منزل؟! ألا يوجد أيتام أغنياء؟!

أم أن هذه المشكلة خاصة برسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!

وهل كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يملك منزلاً، أو مأوى؟! أوليس له منزل يأوي إليه؟!

ألا يحتاج اليتيم إلى كافل، وإلى حضن دافئ، وإلى مدبر للأمور، ودافع للأسواء وللأخطار، ومعلم ومرشد ومسدد، ومضمد للجرح العاطفي، وما إلى ذلك؟!

**ونجيب:**

بأن الإيواء لليتيم هو أهم وأولى ما يحتاج إليه في معالجة أمر اليتيم. فالإيواء ليس مجرد أن يكون لليتيم منزل، بل الإيواء هو الكون الفعلي في داخل المنزل.

---

(1) راجع: عمدة القاري ج2 ص33 .

وفسر الإيواء أيضاً بما يفيد معنى الرقة والرحمة، قال ذو الرمة:

**على أَمْرِ من لم يُشْوِني ضُرُّ أَمْرِه ولو أَنِّيَ اسْتَأْوَيْتُه ما أَوى ليا**[1]

وفسر أيضاً بالتجمع، يقال: تآوت الطير: تجمعت[2].

وفي الإيواء معنى الرقة، والرحمة، واللطف أيضاً، فإن مجرد الكون في المنزل لا يعطي الكائن فيه ـ يتيماً كان أو غيره ـ سعادة، وراحة وطمأنينة وسكينة.

وما أحوج من يفقد الأب إلى هذه المعاني، ولا سيما معنى الاحتضان والحنان، والأمان، وعدم الخوف من المستقبل، وإلى الاستقرار بعد القلق والتزلزل.

وما أحوجه إلى الجمع بعد الشتات، وإلى الشعور بالقدرة والقوة، والتماسك، والرحمة.. لأن اليتيم قد لا يحتاج إلى المال، فقد يكون واجداً له..

وقد لا يحتاج إلى الحامي والمدافع عنه، لأن لديه من يحامي عنه، ولو بدافع العصبية، أو الحمية، أو طلباً للجاه.. ولكنه يحتاج إلى من يضمد جرحه الروحي، ويعينه ويمنحه العطف، ويدبر الأمور، من موقع المحبة،

---

(1) راجع: لسان العرب ج14 ص53 وكتاب العين للفراهيدي ج8 ص438 .

(2) كتاب العين للفراهيدي ج8 ص437 والصحاح للجوهري ج6 ص2274 ولسان العرب ج14 ص52 والقاموس المحيط ج4 ص301 وتاج العروس ج19 ص176.

والعقل، والحكمة، ويحفظه، ويرعاه، ويدفع عنه الأسواء، ويمنحه الرحمة، والرقة، والحنان.

ولا تكفيه الرحمة التي هي مجرد انفعال نفساني، وشعور قلبي، بل يحتاج إلى الرقة التي هي فعل جوارحي، ودخول فعلي في مرحلة العمل، والممارسة. فالرقة عمل تتجسد فيه الرحمة. وتتبلور بالحماية الحانية المصحوبة بالرقة واللطف، لا الحماية التي فيها جبروت وقسوة، وتمنن.

وهذا يشبه في بعض وجوهه الفرق بين الحب وبين المودة، في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1]، فإن المودة هي الحب الظاهر أثره في مقام العمل. أما الحب، فهو مجرد شعور بالانجذاب والتعلق والميل إلى المحبوب.

والإيواء يعطي معنى الاستمرار والديمومة، والبقاء في داخل الحضن الدافئ والرقيق، والحامي، الحاني على من يحميه. الذي لا يغيب عنه، ولا يفقده في أية لحظة، بل هو دائم الحضور معه..

**من هو اليتيم؟!:**

وقد فقد النبي «صلى الله عليه وآله» أباه منذ كان حملاً، ثم فقد أمه، وهو بعمر ست سنوات، فجمع بين اليتمين.

---

(1) الآية 23 من سورة الشورى.

واليتيم في البشر هو فاقد الأب. أما في فصائل الحيوان، فاليتيم هو فاقد الأم، لأن أم الحيوان هي التي تتولى ـ في الغالب ـ تغذية طفلها، وتدافع عنه وتحميه، وتتولى سائر شؤونه. وهذا يفتح أمامنا المجال واسعاً للتدبر والتأمل، فإنه إذا كان للأم دور في تدبير شؤون يتيمها، وتلبية الحاجات القريبة لطفلها، إلا أنها قد لا تكون قادرة على الإنفاق عليه، والاهتمام بسائر شؤونه..

ولئن كانت قادرة على الإنفاق عليه، فإن مشاعرها واندفاعاتها العاطفية العارمة، قد تحد من قدرتها على اتخاذ بعض المواقف التي يتفق أن تمس الحاجة إلى اتخاذها في سياق تقويم مسار يتيمها من سائر النواحي، مثل الناحية الأخلاقية أو الدينية، أو تصحيح أي خلل سلوكي يحتاج تصحيحه إلى بعض الحسم والحزم.

أما الأب، فلعله الأقدر على كثير من الشؤون، فهو الأقدر على التكفل المالي، وعلى التدبير لشؤونه من منطلق العقل، والمحبة، ورعاية الحكمة، واتخاذ المواقف السليمة والحازمة والحاسمة في المجال التربوي، وضبط سلوكه، ورعايته، وتدبير شؤونه.

**لماذا لم يقل: فآواك؟!:**

أما فيما يرتبط بالسؤال عن سبب قوله تعالى: ﴿**فَآوَى**﴾، ولم يقل: فآواك. كما أنه لم يقل: فهداك، ولم يقل: فأغناك..

**فيمكن أن يقال في الجواب:** إن الكلام في هذه السورة عن يتيم، لا يشبه غيره من أيتام الناس، الذين يحتاجون إلى كافل يرق له ويحنو عليه،

ويهيء له المأوى.

إنه يتيم لا يكفي أن نقول: إنه بحجم البشرية كلها، بل الإنسانية بكل ما لها من قيمة وجلال وجمال، بل هو أعظم من ذلك كله، إنه أسمى من الأنبياء، وأعظم وأجل وأعز وأكرم على الله من كل ما ومن خلقه الله.

إنه يتيم خلق الله الكون كله من أجله، بل هو يتيم قبل أن يخلق الله تعالى آدم، وكان نبياً.

إنه يتيم له مهمات كبرى، لديه مهمة استثمار جهود الأنبياء، وأن يرعي مسيرة الخلق، ويهديهم إلى طريق الحق والخير، والسعادة في الدنيا والآخرة، ويوصل هذه المخلوقات كلها إلى كمالها.

إنه يتيم شاهد على الأنبياء على مدى الدهور والعصور، ويتكفل برزق الخلق كلهم، وبحل مشاكلهم، وشفاء مرضاهم، وإصلاح أحوالهم.

إنه يتيم يريد من يحمل معه مسؤوليات جسام، وله غاياته وآماله، التي تعني نجاة وسعادة ومصير الإنسان والإنسانية وسائر المخلوقات، ويحتاج إلى من يعينه على ذلك كله، ومن يحميه ويحميها، ويرعاه ويرعاها، ويرأف ويلطف به وبها، ويرق له ولها. ويحفظ معه مستقبلها.

ولا يريد معونة من إنسان مثله، هو مجرد محب يهتم بشخصه، وبمأكله ومشربه، ومنزله.

إن البشر لا يقدرون على كفالة هذا اليتيم، ولا على معونته، ولا على إيوائه وحفظه.. بل القادر على ذلك هو الله، وحده لا شريك له، فإنه هو

القادر على كفالته، وحفظه، وحمايته بما له من آمال، وأهداف، ومسؤوليات.

وهذا هو السبب في أنه تعالى قال: ﴿فَآوَى﴾ و ﴿فَهَدَى﴾ و ﴿فَأَغْنَى﴾. ولم يقل: آواك الخ..

لأن الإيواء والإغناء والهداية ليست للشخص بما هو شخص، وإنما للشخص الحامل لمسؤوليات وهموم وقضايا البشرية وغيرها كلها. كما أن الهداية التي يحتاج إليها هي تلك التي تمكنه من تحقيق هذه المعجزة التي هي بحجم هذه المسؤولية.. والعائلة التي يريد إغناءها ليست هي الزوجة والأبناء، بل هم الخلق كلهم إلى يوم القيامة، فإنه هو المتكفل بهم.

علماً بأنه حين نزلت هذه السورة المباركة لم يكن لدى النبي إلا زوجته خديجة، وربما لم يكن أطفاله قد ولدوا أو ولد منهم عدد لا يصح أن يعدَّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» عائلاً لأجله.. فإن العائل هو من كثر عياله حتى لم يعد قادراً على القيام بشؤونهم.

وهذا يدل على أن المقصود بعائلته هو المعنى الذي أشرنا إليه، وهو ما يجعله ذا عيلة، يريد لها الغنى عن أن تحتاج إلى معونة أحد سوى الله.

**ويلاحظ**: أن المسلمين كلهم كانوا إذا انقطع المطر عنهم يأتون إلى الرسول، ويطلبون منه: أن يطلب من الله أن ينزل عليهم المطر.

وكانوا يرجعون إليه في شفاء مرضاهم، وقضاء حاجاتهم، وفي حل مشكلاتهم، وفي كل ما ينوبهم، فقد كان الناس يرون أن بإمكانهم أن يطلبوا من أنبيائهم ما شاؤوا، وأن لدى الأنبياء القدرة على تلبية جميع حاجاتهم، وإجابه كل طلباتهم.

**فظهر**: أن المراد بالإيواء هو هذا التكفل والاحتضان والرعاية له، وتلبية حاجاته من حيث هو نبي متكفل بهداية جميع البشر، ويتوقع منه إغناء جميع المؤمنين، وشفاء مرضاهم، وإنزال المطر عليهم، ورفع القحط عنهم، وما إلى ذلك..

وأن المراد بالهداية هو إراءة الطريق لحظة إرادة سلوكها، فقد جهز الله تعالى نبيه بجميع أنواع الهدايات التي يحتاجها لحظة تكوينه، ووجوده، وحضوره بين يديه سبحانه، وحيث إنه قد وُجِدَ محتاجاً إلى هذا الفيض، فمن الطبيعي أن يصاحب الفيض هذا الوجود لحظة حدوثه، ولذا عقب قوله: ﴿**ضَالًّا**﴾ بالفاء في قوله: ﴿**فَهَدَى**﴾. والفاء تدل على التعقيب المباشر بلا فصل.

وهذا يفسر لنا السبب في كونه «صلى الله عليه وآله» نبياً منذ ولد، بل حين كان آدم بين الروح والجسد، أو بين الماء والطين. وكان شاهداً على جميع الأنبياء من زمن آدم «عليه السلام» قال تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[1]، فهو «صلى الله عليه وآله» شاهد على هؤلاء الشهداء على الأمم. أي أنه حاضر معهم، يرى أعمالهم، ويعرف مدى توافقها مع الهدايات الإلهية.

فلا يوجد فاصل زماني بين الحاجة إلى الهداية، وبين حصول الهداية له..

---

(1) الآية 41 من سورة النساء.

**فلا يصح قولهم**: إن الله تعالى قد هداه بالشريعة بعد بعثته في سن الأربعين:

**أولاً**: لما ذكرناه.

**ثانياً**: إن نبوته «صلى الله عليه وآله» لم تبدأ وهو في سن الأربعين، وإنما رأى الناس أنه قد أصبح رسولاً لهم حينئذٍ.

ومطالبة الله تعالى لهم باتباعه، حين بلغ «صلى الله عليه وآله» هذه السن لا تعني حصول النبوة في تلك اللحظة، فلعل نبوته قد سبقت هذا التاريخ بأزمنة كثيرة.

وبعثته «صلى الله عليه وآله» في السابع والعشرين من رجب إما أن يراد بها هذا المعنى، وهو أنه أصبح رسولاً عند الناس، وكانت نبوته قد سبقت، وأصبح الناس من الآن فصاعداً ملزمين بطاعته، وبالإيمان به.

**أو يراد بها**: أن جبرئيل نزل عليه «صلى الله عليه وآله» بعد ولادته، وكلمه من قبل الله تعالى، وذلك في يوم السابع والعشرين من شهر رجب.

**ومن الشواهد القريبة التي تدل على ذلك**: ما ورد من أن الله عز وجل ما أظهر لنبي من المتقدمين من فضيلة إلا وقد جعل لمحمد «صلى الله عليه وآله» وعلي «عليه السلام» مثلها وأعظم منها[1]. وقد قال تعالى عن يحيى:

---

(1) راجع: التفسير المنسوب للإمام العسكري «عليه السلام» ص373 وبحار الأنوار ج17 ص259 ومدينة المعاجز ج1 ص291 عنه.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1]، وقال عن عيسى «عليه السلام»: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[2]..

**بل في الروايات**: أن علياً «عليه السلام» قد نطق بالشهادتين فور ولادته[3]. وأنه لما ولد سجد لله على الأرض، وحمده[4]. وفي بعضها أنه قرأ بعض الآيات لحظة ولادته[5].

---

(1) الآية 12 من سورة مريم.

(2) الآية 29 من سورة مريم.

(3) روضة الواعظين ص79 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص173 و (ط المكتبة الحيدرية) ج2 ص22 وبحار الأنوار ج35 ص11 و 14 و 104 وج38 ص125. والدر النظيم ص232 والفضائل لابن شاذان ص136 و (ط المكتبة الحيدرية سنة 1381هـ) ص58 وجامع الأخبار ص57 و 58 ومعارج اليقين للسبزواري ص58 والأنوار العلوية ص33 و 37.

(4) مناقب آل أبي طالب ج3 ص38 وبحار الأنوار ج39 ص48.

(5) بحار الأنوار ج35 ص18 و 37 و 38 و 217 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص174 (وط المكتبة الحيدرية ـ سنة 1376هـ ـ 1956م) ج2 ص23 والأمالي للطوسي ج2 ص319 و (ط دار الثقافة ـ قم ـ سنة 1414هـ) ص708 ومدينة المعاجز ج1 ص48 والبرهان (تفسير) ج5 ص329 وحلية الأبرار ج1 ص226 وج2 ص22 والإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» لأحمد الرحماني

فهل تثبت هذه الفضيلة لعيسى ولعلي «عليهما السلام»، ولا تثبت لرسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!

وكيف عرف علي «عليه السلام» هذه الآيات لو لم تكن قد نزلت على قلب رسول الله «صلى الله عليه وآله» قبل ذلك؟!

ألا يدل هذا على أن القرآن ونزول جبرئيل إلى النبي به قد كان في زمن متقدم جداً على تاريخ سن الأربعين له «صلى الله عليه وآله»؟!

وشاهد آخر، وهو أنه تعالى لا يخلي الأرض من حجة إما ظاهر مشهور، أو غائب مستور[1].

---

الهمداني ص58 والأنوار العلوية ص36 وغاية المرام ج1 ص53 و 99.

(1) راجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص37 رقم الحديث 147 والإرشاد ج1 ص228 والخصال ص187 والأمالي للصدوق ص253 والأمالي للطوسي ص21 وكمال الدين ص139 و 207 و 291 و 292 و 293 و 294 والأمالي للمفيد ص250 وبصائر الدرجات ص506 ورسائل في الغيبة للمفيد ج2 ص12 والإحتجاج للطبرسي ج2 ص48 و 49 وج1 ص3 ومناقب آل أبي طالب ج1 ص211 وبحار الأنوار ج23 ص6 و 48 و 49 وج52 ص92 ونهج السعادة ج1 ص495 وج8 ص21 وعيون الحكم والمواعظ ص541 ودستور معالم الحكم لابن سلامة ص84 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج10 ص263 وتاريخ مدينة دمشق ج50 ص255 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص206 والمعيار والموازنة ص81 ونزهة الناظر للحلواني ص57 وشرح نهج

فمن كان الحجة بعد وفاة عبد المطلب؟! لاسيما إذا أُخذ بالرواية التي تقول: ما زال الله ينقلني من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجني من صلب أبي عبد الله؟![1].

فلا يصح ما يدعونه، من أنه قد كانت هناك فترة من الزمن مرت على الناس لم يكن فيها لله حجة على الناس، وهي الفترة التي سبقت بعثة رسول الله «صلى الله عليه وآله».

## أنواع الهدايات:

**وفيما يرتبط بالهدايات التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿فَهَدَى﴾ نقول:**

إن الهدايات لا تنحصر بالهداية التشريعية، بل هناك أنواع من الهدايات، مثل:

**1** ـ الهداية التكوينية: والتي هي منحة إلهية لجميع المخلوقات النامية،

---

البلاغة للمعتزلي ج18 ص347 وإعلام الورى ج2 ص228 وينابيع المودة ج1 ص75 وج3 ص360 ومستدرك سفينة البحار ج2 ص205 والغيبة للنعماني ص32 و 136 وتفسير القمي ج1 ص359 وتفسير نور الثقلين ج2 ص484.

(1) راجع: سبل الهدى والرشاد ج1 ص235، وراجع: مجمع الزوائد ج7 ص86 وتفسير السمعاني ج4 ص71 وتفسير القرآن العظيم ج3 ص365 وإختيار معرفة الرجال ج2 ص448 ومعجم رجال الحديث ج18 ص132 وإمتاع الأسماع ج3 ص190 وبحار الأنوار ج15 ص3 وج16 ص374 وج37 ص175 وتفسير فرات ص505 وتاريخ الخميس ج1 ص234 و 235 وتفسير البحر المحيط ج7 ص47.

كالشجر والنبات والإنسان والحيوان، وغير ذلك، وهي ترتبط بالخلق والتكوين في طبيعة الأشكال والأحجام، وكثافة المكونات للأجزاء والأعضاء.

وترتبط أيضاً حتى بالطبيعة وبالأخلاق، والحالات والسلوكيات، وسائر القوى التي منحها سبحانه لهذه المخلوقات.

**2** ـ الهداية الإلهامية، حيث يلاحظ: أن الطفل يلتقم ثدي أمه ويمارس الرضاعة من أول يوم ولادته.

**3** ـ الهداية الفطرية، التي أشار إليها الحديث الشريف: كل مولود يولد على الفطرة، إلا أن أبويه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه[1].وقال تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[2].

ومنها الفطرة على التوحيد، وعلى الفكر، والتأمل.. وغير ذلك.

**4** ـ الهداية الغريزية. كالعداوة بين الهر والفأر، وبين الذئب والشاة.. وما إلى ذلك. ومنها غريزة الجنس.

**5** ـ الهداية العقلية.. حيث يتكفل العقل والفكر بطائفة كثيرة من الدلالات والإدراكات.

**6** ـ الهداية التشريعية: قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[3].

---

(1) الخلاف ج3 ص591 ومختلف الشيعة ج6 ص108 ووسائل الشيعة ج11 ص96 وبحار الأنوار ج3 ص281.

(2) الآية 8 من سورة الشمس.

(3) الآية 10 من سورة البلد.

7 ـ بالإضافة إلى التوفيقات الإلهية.. بل قد تجد الهداية حتى من خلال الرؤيا في المنام، أو الحالات الشعورية والتوجسات والخلجات النفسية والفكرية.

**لم يقل: فهداك:**

وقد رأينا أنه تعالى بالرغم من أنه قد خاطب نبيه الاكرم أولاً بكاف الخطاب، فقال: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا**﴾، أتبعها بقوله: ﴿**فَهَدَى**﴾ بدون الكاف، ولم يقل: فهداك.

ولعل ما ذكرناه فيما سبق عن سبب قوله تعالى: ﴿**فَآوَى**﴾، ولم يقل: فآواك يكفي للإجابة عن هذا السؤال، ولكننا نعيد توضيح ما نرمي إليه، فنقول:

إنه تعالى لم يخلق الخلق عبثاً، بل كل شيء له هدف وغاية. قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[1].

وللناس مسار وطريق نحو تلك الغايات والأهداف.

وسلوك هذا الطريق يحتاج إلى محرك، ودافع..

كما أن لكل إنسان مسؤوليات، ومهمات يفترض فيه أن يقوم بها في سبيل تلك الأهداف الإلهية، ومسؤولياته تتناسب مع طاقاته، ومع ما حباه الله تعالى من منح وعطاءات، وهنات وكرامات، ومع ما له عند الله من زلفى ومقامات، ثم مع ما هو عليه من حالات وظروف وما إلى ذلك..

(1) الآية 115 من سورة المؤمنون.

وقد عرفنا أن مهمات وأهداف رسولنا الأعظم «صلى الله عليه وآله» هي بحجم البشرية بأسرها، فضلاً عما عداها من مخلوقات الله الأخرى، حتى الجن والملائكة، فإنه «صلى الله عليه وآله» مسؤول عن إيصالها إلى كمالها.

ونبينا «صلى الله عليه وآله» هو الذي علَّم الملائكة التسبيح[1]، وهو المسؤول عن كل ما يحفظ للسماوات والأرض الصلاح والسلامة، وهو يحتاج إلى دلالات وهدايات ومعونات وألطاف، وإلى تأييد وتسديد بحجم تلك المهمات والأهداف.

فمن يريد أن يزور حبيباً أو قريباً في بلد مجاور قد يكتفي بالمسير إليه مشياً على الأقدام، وإذا كان في بلد يبعد بضعة فراسخ، فقد يحتاج إلى دابة تحمله، أو دراجة يستعين بها.

وإذا كان في بلد يبعد مئات الفراسخ، فكان يحتاج في السابق إلى الكثير من الدواب والمرافقين والمؤن والأعلاف، ويحتاج في زماننا هذا إلى سيارة أو قطار أو طائرة، وإذا كان في بلد يفصله عنه البحر أو المحيط فقد يحتاج إلى السفن أو الطائرات، وما إلى ذلك..

مما يعني أن حجم الأهداف يفرض طبيعة وحجم الوسائل إليها، والحاجة إلى القدرة والمعرفة بكيفيات الاستفادة من تلك الوسائل. وقد يحتاج إلى دراسات، وإلى كثير من الخبرات، لإنتاجها وإعدادها.

---

(1) الإختصاص ص91 وبحار الأنوار ج25 ص1 وج26 ص344 وج39 ص306 وكنز الدقائق (تفسير) ج14 ص530.

فما بالك بما يحتاج إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، الذي بتنا نعرف طرفاً عن بعض أهدافه ومهماته. فقد احتاج إلى الإسراء، والمعراج، كي يريه الله تعالى ملكوت السماوات والأرض، وغير ذلك من آياته، لأنه «صلى الله عليه وآله» كان يحتاج إلى هذه الرؤية، لأنها تقع في سياق تهيئة الأسباب والإعداد له لما هو أعظم وأهم.

ونحن وإن كنا نعتقد أنه «صلى الله عليه وآله» كلن قد بلغ في ذلك أقصى المراد، ولكن المطلوب بالإضافة إلى ذلك هو أن يرى الناس ذلك فيه، لأنهم هم الذين يطلب منهم الإيمان به «صلى الله عليه وآله».

كما أن هذا يدلنا على طبيعة وحجم الهدايات التي يحتاجها «صلى الله عليه وآله»، لا سيما وأن مهماته لا تقتصر على البشر، بل تشمل سائر المخلوقات، فيحتاج في الهداية إلى الوسائل التي تناسب كل صنف أو نوع، وإلى القدرة على تحريك الوسائل، والإستفادة منها عملياً أيضاً.

ولأجل ذلك جاء قوله تعالى: ﴿**فَهَدَى**﴾ ليشير إلى أنه هو «صلى الله عليه وآله» أيضاً سوف يكون مصدراً للهدايات لكل هذه المخلوقات، كل بحسب حاله، وحسب ما يحتاج إليه، مما يساعده على الوصول إلى كماله.

# الفصل التاسع:

## (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى )

**(عَائِلًا):**

لا حاجة لإعادة الكلام حول كلمة ﴿**وَوَجَدَكَ**﴾.

وأما قوله ﴿**عَائِلًا**﴾، فقد قيل في معناه: إنه الفقير.

ولكن تبقى الحاجة ماسة إلى الإجابة على السؤال عن سبب العدول عن كلمة الفقير التي هي المقصود الأصلي إلى كلمة أخرى تحمل معناها، ولكنها تحتاج إلى بيان وتفسير.

والذي يظهر من ملاحظة موارد استعمال كلمة ﴿**عَائِلًا**﴾، هو: أن اختيار هذه الكلمة كان لأجل الإلماح إلى خصوصيات أخرى، نوضحها فيما يلي:

إن كلمة «العائل» تعني أولاً وبالذات صاحب العيال الكثيرة. فيفهم من لحن القول ـ أي بالدلالة الالتزامية ـ: أنه يحتاج إلى معونة في تدبير شؤون هذه الفئة الكثيرة، سواء في ذلك الشؤون المالية أو التعليمية، أو التربوية، أو رعاية العلاقات فيما بين أفرادها أو فئاتها وغير ذلك..

ولو قال: وجدك فقيراً لفهم منه أنه يحتاج إلى مؤونة نفسه وأهل بيته الأقربين، لأنه لا يملك ما يكفيه لإعالتهم.. وحيث إننا نعلم أنه «صلى الله

عليه وآله» لم يكن لديه عيال بهذا المعنى، فقد جاء التعبير بكلمة ﴿عَائِلًا﴾ ليفيد أن عياله إنما هم الذين يرى نفسه مسؤولاً عنهم، وعن كل حاجاتهم، وسائر أمورهم.. من حيث هو نبي ورسول، فيحتاج إلى قدرات وهدايات وعلم، وتدبير، وتسديد، وتمكين من السنن بنحو يستطيع من خلال ذلك أن يقوم بمسؤولياته هذه على أكمل وجه.

**كلام الراغب غير دقيق:**

**وقد ذكر الراغب الأصفهاني**: أنه يحتمل أن تكون الألف في كلمة «عائل» منقلبة عن واو والأصل «عول»، فتكون بمعنى صاحب العيال، وهو من كثر أفراد عائلته..

ويحتمل أن تكون منقلبة عن ياء «عيل»، فيكون معنى العائل: هو الفقير[1].

فقد يقال: إن صح كلام الراغب، فإن نفس احتمال هذين الأمرين فيها يكون كافياً في ترجيح اختيارها في هذا المورد..

**غير أننا نقول:**

إن الاختلاف في منشأ الاشتقاق هذا يوجب الإجمال والإبهام في

(1) المفردات في غريب القرآن ص354 وراجع: النهاية لابن الأثير ج3 ص330 ولسان العرب ج11 ص488 و 489.

المعنى، إذ لا يمكن إرادة المعنيين معاً. بسبب اختلاف منشأ الاشتقاق..

**ولذلك نقول:** لا ندري مدى صحة ما ذكره الراغب من اختلاف المعنى بين مصدري الاشتقاق، غير أن من الطبيعي أن يحتاج صاحب العيال إلى المعونة في مختلف المجالات، لا في خصوص الناحية المالية التي قد ينصرف الذهن إليها من كلمة فقير أو محتاج.

فإذا كانت العيلة هي الأمة كلها، أو جميع المخلوقات، أو الكائنات كلها، لا خصوص جنس البشر، وكان المسؤول عن هذه العيلة هو سيد الأنبياء والمرسلين، وكان المطلوب منه هو إيصالها إلى كمالاتها وغاياتها الإلهية على امتداد هذا الوجود في الدنيا والآخرة، فإن الحاجات التي يتطلبها ذلك لا تختص بالماديات، فهناك حاجات في مجال الهدايات الروحية أو التربوية، أو المادية المالية أو غيرها، أو الفكرية، أو السياسية، أو التدبيرية، أو التكوينية، وفي جميع شؤون التكوين، والتدبير والعلم، والمعرفة والحرب والسلم، والصناعة، والزراعة، والتجارة، والإختراع و.. و.. و.. وغير ذلك مما يريده الله تعالى لعباده في صلاح معاشهم، ومعادهم، وسعادتهم في دنياهم وفي آخرتهم.

**لماذا (فَأَغْنَى)؟!:**

وقد قال تعالى: ﴿**فَأَغْنَى**﴾، ولم يقل: فأغناك. ربما ليشير إلى أن المطلوب هو غنى من يعولهم ويدخلون في دائرة مهماته ومسؤولياته الإلهية، فالله تعالى يريد أن يجعل رسوله وسيلة لإفاضة الغنى على غيره على قاعدة ﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾. فالمطلوب هو غنى من

يعولهم من موقع رسوليته للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة..

وليس المطلوب غناه هو «صلى الله عليه وآله» كشخص، أو هو مع خصوص زوجته وأبنائه، ومن هم في تكفله في محيطه البيتي الخاص..

والمطلوب هو غناهم، لا في خصوص الجهات المادية وحسب، بل في جميع شؤونهم، فلا يحتاجون إلى معونة أي كان من خلق الله الآخرين.

ولأجل ذلك لم يقل تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُوا**﴾ إلا أن أعطاهم الله ورسوله. أو إلا أن سد عوزهم.

والمطلوب هو وصولهم إلى درجة الغنى المطلق عن جميع المخلوقات، فلا يحتاجون إلى غير الله ورسوله.

وهذه غاية سامية، لا يتوهم أحد من الناس أنه سوف يبلغها في وقت من الأوقات..

كما أن المطلوب هو بلوغ درجة الإستغناء، وليس المطلوب هو التمول والتغوُّل، وتكديس الأموال، كما هو حال قارون الذي كان لديه ﴿**مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾، فإن جمع الأموال في الخزائن، قتل للأموال وحكم عليها بالعقم وبالإبطال، لأن حبسها منع لها من التناسل، والتنامي. وكما يقتل خازن المال ماله، فإنه يقتل نفسه معه، لأنه سيتحول أيضاً إلى إنسان عاطل وخامل، همه أن يحرس المال وأن يصرف عمره وجهده، ويجمد عقله، وتفكيره، ويوقف نفسه على خدمة وحراسة هذا الميت مع أنه مجرد شيء خاوٍ وخامد، وجسد هامد وجامد..

وبدل أن يكون المال معيناً للإنسان على حل مشاكل الحياة، وتجاوز مصاعبها، ومن وسائل نمو الإنسان ورقيه وتعاليه، ومن أسباب شموخه وعزته، ومنع ابتذال كرامته، وعدم إذلاله ومهانته، ومن موجبات الإستغناء عن الغير، يصبح هذا المال نفسه سبباً في خموله، وسقوطه، وتلاشي عزمه، وإبطال همته، وتعطيل تفكيره وعقله، وبوار آماله وطموحه.. وسقوطه وخسرانه في الدنيا وفي الآخرة.

**توطئة وتمهيد للفصول التالية:**

وقد تضمنت هذه الآيات ـ ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ إلى آخر هذه السورة ـ ثلاثة أمور هي المرتكزات الإنسانية لمسيرة الكون والحياة، وهي التالية:

**1** ـ التبني والتأييد، والإحتضان والرعاية الإلهية لرسول الله، المتمثل بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾.

**2** ـ الإمداد بجميع أنواع الهدايات، والدلالات، والتسديد العملي، والكشف عن الخريطة التفصيلية للواقع الراهن، وعن الخطط العملية في مجال الهداية في المراحل التالية المتمثل بقوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾.

**3** ـ توفير جميع أنواع الحاجات والوسائل الضرورية، والمعونة العملية المتواصلة، في جميع المجالات وعلى جميع المستويات، كما قال تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾.

**آثار واقتضاءات:**

ثم جاء دور توظيف هذه الإمكانات كلها في المجال التطبيقي في

التوجيهات الإلهية في ثلاثة خطوط، لا بد من اعتمادها في المجال العملي، وهي قوله تعالى:

**1 ـ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.**

**2 ـ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.**

**3 ـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.**

فهذه الخطوط الثلاثة تمثل المسلكية والسياسة، والنهج الحياتي العام..

وهي التي إذا تم إنجازها منه «صلى الله عليه وآله»، فإنه يكون قد أدى ما عليه، وأنجز ما أوكل إليه..

فلا بد من صرف الكلام نحو هذه المجالات، واستكشاف ما يتيسر لنا استكشافه من ملامح المعاني التي أشارت إليها هذه الآيات المباركة بما لها من قوالب تعبيرية احتوتها، مع التأكيد المتواصل على عجزنا عن بلوغ شيء من غايات تلك المعاني، فضلاً عن أن نتمكن من سبر أغوارها، واكتشاف أسرارها، فإن القرآن بحر عميق لا تنفذ عجائبه، ولا تنال غرائبه، ولا يشبع منه علماؤه. ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك جله.

فمن الله نستمد القوة، ونطلب التسديد والعون، وهو ولي التوفيق، فإلى ما يلي من فصول، ومطالب.

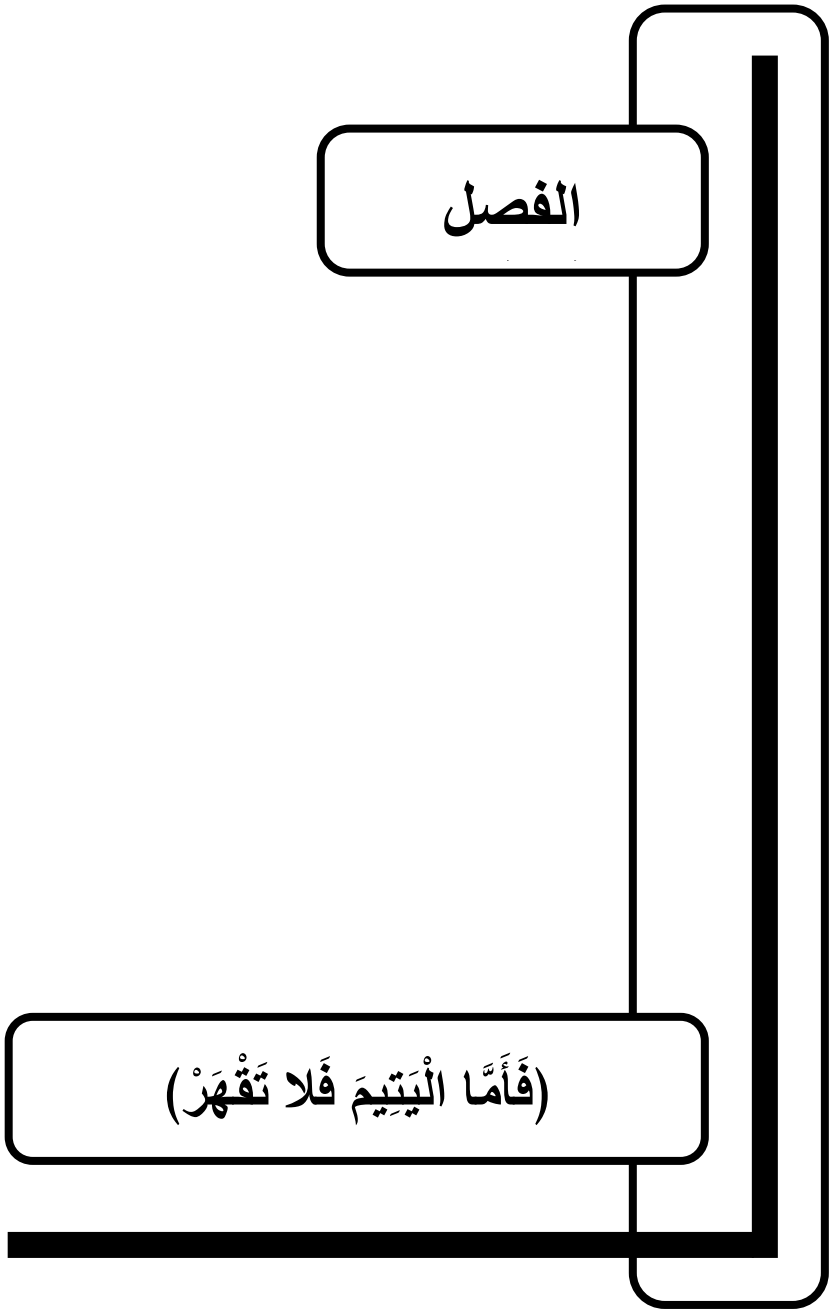
الفصل
(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ)

**للتذكير فقط:**

قبل كل شيء أحب تذكير القاري الكريم بما كنت قد ذكرته له أكثر من مرة، وهو أن بعض الأمور التي قد يراها صغيرة، وغير ذات اهمية، بل قد لا يكاد يشعر بوجودها، أو بصدورها منه، قد تنشأ عنها أمور عظيمة وهائلة، فتكون كالشرارة التي تبدأ صغيرة، وتنتهي بأمر مهول، تطيش له الألباب، وتُدهَشُ العقول..

**وفيما يرتبط باليتيم والمسكين، نقول:**

قد ذكر أمر اليتيم في العديد من الآيات القرآنية الشريفة، منها:

قوله تعالى هنا: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾[1].

وقال: ﴿**كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾[1].

---

(1) الآيات 1 ـ 3 من سورة الماعون.

(1) الآيتان 17 و 18 من سورة الفجر.

وقال عن المسكين في سورة الحاقة: ﴿**إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ**﴾(1).

فنرى أنه تعالى قد جعل من مظاهر الكفر، والتكذيب، وعدم الإيمان بيوم الدين، واستحقاق العذاب الأليم:

دعّ اليتيم، وهو دفعه بعنف، وجفوة.

وعدم الحض على طعام المسكين، كما ورد في سورتي الماعون والحاقة.

وعدم التحاض على طعام المسكين كما في سورة الفجر.

**واللافت هنا**: أن هدايات الله تعالى للإنسان لا تفارقه منذ بداية تكوينه، لأنه تعالى يريد أن يهيئ له كل ما هو ضروري لحفظه، وتكريس صلاحه، حتى من أول ساعات التفكير باستيلاده، فما بالك بما بعد ذلك، وذلك من خلال التشريعات والأحكام والتوجيهات لأبويه، والأمر بتجنب كل ما يؤثر عليه، أو يسيء إليه، وفعل كل ما فيه صلاحه وفلاحه حتى وهو جنين.

ثم تصاحبه الأحكام الشرعية، والهدايات التكوينية والإلهامية، والفطرية، والغريزية، والعقلية والشرعية المتوجهة إليه وإلى غيره في جميع لحظات حياته، بالإضافة إلى المعجزات والكرامات، والتوفيقات، وحتى الأحلام

(1) الآيات 33 ـ 37 من سورة الحاقة.

والمنامات، وحتى الحالات النفسية والخطرات، والمشاعر، وسواها، فإنها كلها هدايات ودلالات ووسائل تحذير، وترغيب وترهيب، وما إلى ذلك.

ولأجل ذلك ركزت الآيات هنا فيما يرتبط باليتيم والمسكين على الجانب الأخلاقي، فإن أساس الدين الأخلاق، وهي العامل الحاسم والأقوى. وقد انطلقت هذه التوجيهات متمازجة هنا بالعاطفة والمشاعر الخيِّرة، لكي تعينها في فرض القرار الصالح والسلوك الصحيح، فإن معاملة اليتيم بجفاء، وعدم استشعار القلب الرحمة له لأجل يتمه. وكذلك فقدان الدافع النفسي لدى الإنسان، ليبذل للمسكين طعاماً، لأن الإنسان قد يبخل بما يراه ملكاً لها.

كما أنه ليس فقط لا يحث غيره على إطعامه، خوفاً من أن يعترض عليه معترض بأنك إنما تسخو عليه من مال غيرك لا تبذل أنت له المال؟!

بل هو لا يحث من يحبس على المسكين طعاماً هو ملك للمسكين نفسه، ولا يحضه على الإفراج له عن ذلك الطعام، فقد أسكنته الحاجة إلى نفس ذلك الطعام وأذلته، وأخمدت جذوة الحياة فيه، حتى أصبح هامداً ساكناً، بل كثير السكون، حتى سمي مسكيناً.. فلماذا يحبس عليه الطعام الذي هو له، وهو بأمس الحاجة إليه.

**ويلاحظ هنا**: أنه لم يقل: ولا يحض على إرجاع مال المسكين إليه، لأن المال قد لا يكون طعاماً، وقد يحتاج تحويله إلى طعام إلى جهد ووقت. وكلمة طعام أبلغ في آثاره العاطفية، وأكثر دلالة على قسوة هذا الإنسان.

فمن بلغ الجفاف العاطفي في داخل ذاته إلى هذا الحد، يكون قد فقد

كل النبضات الحية للقيم والأخلاق، والمشاعر الإنسانية.

ولعله أصبح من فصيلة أخرى لا تنتمي إلى المخلوق السوي الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ففرَّط بكل مزاياه، وتخلَّى عن جميع سماته الكريمة وصفاته الفاضلة، وأصبح قلبه قاسياً إلى الحد الشنيع.

فما بالك إذا صارت هذه القسوة فاشية في الناس حتى أصبحت هي الظاهرة العامة فيهم، فإنهم يصيرون حينئذ هم الأجدر والأولى بالخطاب الذي خاطب الله تعالى به بني إسرائيل، حيث قال تعالى لهم بازدراء وتأنيب شديد: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾.

والله تعالى يريد من المجتمع الإيماني أن يكون مجتمعاً متراحماً، متعاوناً متكافلاً، يؤثر المؤمن أخاه على نفسه بماله، فيطعمه إياه ويبقى هو يتلظى بالجوع، ويكابد شدة حاجته إليه، كما قال تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾.

والمثل الأعلى لهذا الجو المفعم بالتواد، والتراحم والإيثار هو ما تجسد في آيات سورة هل أتى، حين أطعم أهل البيت «عليهم السلام» طعام إفطارهم الذي كانوا هم بأمسّ الحاجة إليه: المسكين واليتيم، والأسير، وبقوا هم ـ بما فيهم الحسنان «عليهما السلام»، وكانا طفلين ـ ثلاثة أيام بلياليها، لم يذوقوا فيها طعاماً سوى الماء القراح، وكانوا صائمين نهارهم،

متعبدين لربهم في ليلهم.

وهذا يعطينا درساً يحتم علينا أن لا نستهين بالأمور، مهما بدت لنا صغيرة، وغير ذات أهمية، فإن عدم عدم الحض على طعام المسكين وإن كان مما لا يكترث له الناس عادة، ولكن دلالاته وآثاره الواقعية كانت كبيرة وخطيرة، ومصيرية في الدنيا وفي الآخرة.

**خذ مثلاً على ذلك**: أننا لو رأينا إنساناً مشلولاً شللاً تاماً، فكم كنا نتألم ونتوجع له؟! فما بالك إذا كان هناك إنسان لا يحض حتى على طعام المسكين، بل هو يعامل اليتيم بجفاء، فإن هذا الإنسان سيكون أعظم خطراً، وأشد ضرراً ممن لا يرق قلبه إذا رأى هذا الشلل، لأن هذه المعاملة ناشئة عن عاهة سرطانية مهلكة في الدنيا والآخرة على حد سواء.

كما أن التصدق بأقراص من شعير، وبدرهم ليلاً، ودرهم نهاراً، ودرهم سراً، ودرهم جهراً قد كان له من الأثر العظيم، والكرامة والزلفى عند الله ـ الذي تجلى في سورة هل أتى، وفي آيات قرآنية أخرى ـ ما لا يمكن أن تدركه العقول والأفهام، أو أن تناله الظنون والأوهام.

بل لقد نزلت آية الولاية ـ وهي أعظم مقام بعد مقام النبوة الخاتمة ـ حين تصدق علي «عليه السلام» بخاتمه في صلاته. فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1]. وقد ادعي أن بعضهم أنه تصدق بأربعين خاتماً، ولم ينزل فيه

(1) الآية 55 من سورة المائدة.

آية كما نزل في أمير المؤمنين «عليه السلام»..

**ويلاحظ**: أن آية الولاية لم تنزل حين اقتلع «عليه السلام» باب خيبر، أو في غير ذلك من موارد جهاده العظيمة.. مع أن إخلاص علي «عليه السلام» كان هو نفسه في جميع مواقفه ومواقعه.. ولكن الغاية من نزولها بخصوص هذه المناسبة هي الدلالة والتعليم، وأن توضع الأمور في نصابها، وأن يعرف الناس القيمة الحقيقية للقيم والمنطلقات والأخلاق..

بل قد يكون المشلول جسدياً، والفاقد لكل جوارحه في أرقى حالات السمو الروحي والنفسي.. في حين أن من يملك كل ما في هذه الدنيا من مال وجاه وقدرات، وما إلى ذلك قد يكون أخسر الخاسرين حين يكون التلف قد أصابه في تكونيه الإنساني أو الإيماني.

**الأخلاق أساس ومنطلق:**

**وقد ظهر مما قدمناه**: أن للأخلاق موقعها الحساس والأساسي في الدين، والإيمان. وأن أي خلل فيها ـ مهما كان بنظر الناس غير ذي أهمية ـ قد يودي بالإنسان إلى الهاوية..

**والشاهد على ذلك**: أن غرور واستكبار إبليس عن الطاعة لله في أمره له بالسجود لآدم، وعُجْبِه بنفسه، لأن الله تعالى خلقه من نار، وخلق آدم من تراب ـ إن غروره هذا ـ قد انتهى به إلى أن رضي بأن يكون شيطاناً رجيماً، خائباً، خاسراً ملعوناً، مطروداً من رحمة الله، ورضي بأن يمتهن أرذل أنواع المهانة والخزي، وهو إضلال الناس، وإفساد حياتهم، بسبب هذا

الخلل الذي أودى به إلى هذا المصير المهين والمشين.

مع أن إبليس كان يعترف بالله وبقدرته، وأنه هو المالك والقاهر والقادر الخ.. ولذا طلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون. ولكنه كان مبتلى بداء عضال هو الاستكبار، وكان يحاول إخفاء هذا الداء، ويسعي لخداع الملائكة بالعبادة الطويلة التي امتدت آلاف السنين، ففضحه الله تعالى بسجدة واحدة أمره بها، ولم ينفعه عقله الشيطاني ومعرفته، فحاول أن يعتذر بقياس باطل يدَّعي فيه: أن النار هي الأقوى والأشرف، لأنها تنير وتحرق، وقد خلقه الله تعالى منها، وخلق آدم من تراب، متناسياً أن التراب ينبت النبات والأشجار، ومنه تكون الحبوب والثمار، ويعطي الحياة، وهو منشأ البركات والخيرات، ومنه أكرم وأشرف المخلوقات وسيد الكائنات، ومن هو في أحسن تقويم، وكان إبليس يعلم ذلك.

ولكنه كابر واستكبر، فهلك وأهلك.

فالخلل الأخلاقي قد جر عليه هذه المصائب والبلايا، وقد عجز عقل إبليس عن مواجهة هواه، بل إن هواه هو الذي أسر عقله وسخره في أرذل الأعمال وأخزاها.

فالأخلاق هي العامل الأقوى، الذي يستبد بالإنسان ويقوده إلى الصلاح والفلاح، أو إلى الدمار والبوار، حين يقهر العقل ويحرف الفطرة، ويمنع من الطاعة والانقياد، ويتمرد على الشرع..

وإن طغيان وعلو فرعون في الأرض، واستكباره أيضاً، وإسرافه وغروره قد انتهى به إلى ادِّعائه الربوبية. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي**

﴿الْأَرْضِ﴾[1] و ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2] و ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[3].

كما أن هذا الخلل نفسه قد دعاه لارتكاب أفحش الظلم لقومه، فصار يذبح أبناءهم وصلحاءهم، ويذيقهم أنواع العذاب، ويستحيي نساءهم بلا رحمة بهن، فإن ما يفعله بالأبناء يدل على مدى قسوته، ولكن كل همّ فرعون كان منصرفاً إلى قتل الذرية الذكور، لعلمه بأن قاتله واحد منهم.

**فلاتقهر لماذا؟!:**

**ويلاحظ**: أنه تعالى لم يطلب منا: أن نرحم اليتيم، أو أن نعطف عليه، أو أن ندبر شؤونه، وأن نسعى في حوائجه؛ أو أن نحسن إليه، أو أن نوصله إلى مراداته. بل اختار تعالى أن ينهى عن قهر اليتيم، لا عن ضربه، ولا عن أخذ ماله..

ولعل السبب في اختيار النهي عن القهر دون ما عداه هو أن قهر إرادة شخص آخر، ومحاولة الهيمنة على قراره أمر يستسهله الناس، ويبيحونه لأنفسهم، ولا يرونه جريمة، بل قد لا يرونه ذنباً أصلاً. وإنما هو من الدهاء والتفوق والذكاء والعبقرية.

---

(1) الآية 4 من سورة القصص.

(2) الآية 83 من سورة يونس.

(3) الآية 24 من سورة طه، والآية 17 من سورة النازعات.

ولعل محاولة قهر إرادة اليتيم ومراقبة حركته في أدق تفاصيلها، والسعي إلى التحكم بها، وضبطها وفق الأهواء هو أول ما يواجهه اليتيم، وله تأثيره السلبي عليه، ولاسيما بعد يتمه وشعوره بأنه لا ناصر له ولا معين، حيث تتجسد أمامه وحدته، ويشعر بضعفه الشديد الذي لا يجد أملاً بالتخلص منه، فضلاً عن أن يتحول إلى قوة.

وتتضاءل نفسه أمام هذا الواقع، ويتلاشي عنفوانه، وتتأكد الخيبة لديه، وتتحول إلى صدمة وجرح روحي عميق، يصعب علاجه.

إن اليتيم قد لا يحتاج إلى النفع المادي، فربما كان غنياً. ويجد من أقربائه من يدبر له أمر ماله ويحفظه له..

وحتى لو كان بحاجة إلى النفع المادي، فإن الدافع لتلبية حاجاته قد يتوافر لدى كثيرين، ولكن ذلك قد يشجع أولئك الكثيرين على محاولة الهيمنة على إرادته، وقهره وكسر قراره، ويظن كثير منهم أنهم يحسنون صنعاً بذلك، ويقدمون خدمة جليلة له، وقد يرى أولئك المحسنون له أن إحسانهم إليه، وعطفهم عليه يعطيهم الحق بفرض إرادتهم عليه.

ولو أنه تعالى قال: اعط اليتيم، أو أعنه، أو اهتم بتدبير شؤونه، وتلبية حاجاته، أو اعطف عليه لترسَّخ في وجدان من يبتسم في وجه يتيم ولو مرة واحدة أن له الحق ليس فقط في مصادرة قرار اليتيم، بل في زجره، وحبسه، أو ضربه، وكل ما يتوهم ـ ولو بتسويل شيطاني ـ أنه رادع له، أو نافع في تربيته، وضبط حركته..

ولبطلت الحدود، وسقطت القيود، ولم تعد تنفع الحجج لردعه عنه،

وتخليصه من أيدي الفضوليين والمتطاولين. فهذا يريد أن يسكته، وذاك يريد أن يمنعه عن اللعب، أو أن يزجره عن البكاء، أو أن يفرض عليه أن لا يتحرك، أو أن لا يضحك، وهناك من يريد أن يحركه هو كما يشاء، كما يحرك عصاه بيده، أو ما إلى ذلك..

وتتدخل الأذواق، والاجتهادات، والأنانيات، وبيتلى بالتناقضات في محاولات التضييق عليه، والتحكم به في كل اتجاه.

وما أكثر ما يكون ذلك لدوافع أنانية وشخصية، مغلفة بغلاف التوجيه، والتعليم، والتربية، والمصلحة لليتيم..

**ولذلك رأينا**: أن الشارع لم يعط أحداً حق التدخل في شؤون اليتيم، بل حدد له ولياً، مسؤولاً عنه بعد موت أبيه، فإن لم يكن، فالحاكم الشرعي هو الولي الذي يحدد له من يتولى ذلك منه، لكي لا يتعرض اليتيم للقهر والظلم والتعدي، ممن لا دراية لديه، أو لاستغلال أصحاب المآرب والأطماع الشخصية.

**أي يتيم؟!**

ثم إنه تعالى لم يحدد اليتيم الذي أمر رسوله بأن لا يقهره، ليشمل الكلام أي يتيم كان، ذكراً كان أو أنثى، قريباً أو بعيداً، مسلماً أو غير مسلم. ليدرك من خلال هذه المعاملة سماحة هذا الدين، ومنطلقاته، وغاياته، ونبله، وليعيش السكينة والطمأنينة، وراحة البال فيما يرتبط بمستقبله.

**القهر!! لماذا؟!:**

**واللافت هنا**: أنه تعالى قد أطلق القهر، ونهى عنه بجميع أنواعه ومراتبه إذا كان مجرد قهر وتجبر، حيث يفقد المقهور الحامي والمدافع عنه، والقهر هو الهيمنة التي يصاحبها إذلال، ومصادرة للحرية، ولا يريد الله تعالى للإنسان أن يعتاد الذلة، أو أن يتقبلها، ويتدجن عليها، إلا إن كانت هذه الذلة على سبيل العقوبة على جرم يستحق به أن يذوق طعم الذلة، مثل جرم البغي والإستكبار عن الحق بغير حق.. فإن التكبر على المتكبر عبادة.

وإنما لم يقل: فلا تقهره، لأنه لا يريد أن يحصر النهي عن أسلوب القهر باليتيم، بل هو تعالى يكره القهر والإذلال لكل البشر، ولكل إنسان، ولو لم يكن يتيماً..

أما المنع بغير إذلال ولا قهر، فلا مانع منه إذا كان على سبيل التربية والتعليم، مع حفظ الكرامة والعزة، وفي حدود ما صرح الشرع بالرخصة فيه.

# الفصل الحادي

## (وَأَمَّا السَائِلَ فَلا تَنْهَرْ)

**للبيان والإيضاح:**

**قد ظهر مما تقدم:**

**1 ـ** أن الله تعالى قد حفظ لهذا اليتيم حالة السلامة الروحية والنفسية لكي لا يتلاشى معنى الإنسانية في داخل ذاته، وليعيش معنى الكرامة والعزة، ويشعر بالقيمة.

ومنع من استغلاله، وأطلق له إرادته، وحفظ له حضوره الفاعل، والحيوي، والقوي، ولم يتعرض لعنفوانه الشخصي بأي أذى.

وأفهمه أنه إنسان كامل الحقوق في الإنسانية، يملك نفسه، وله حريته وكرامته، وله إرادته، وقراره، واحترامه، وله قدراته، وليس عاجزاً، ولا معاقاً.

وله حقوق قررها وكرسها له الشرع الشريف، يحميه شرع الله بأحكام وضوابط، وحدود وقيود، تضمن له كرامته الإنسانية، وتصونه من أي عدوان، وتمنع من استضعافه أو الافتئات عليه بأدنى شيء.

**2 ـ** وبعد وضع هذا الأساس الأخلاقي، والشرعي، الذي يضمن له حريته وكرامته وسلامته الروحية والنفسية، وشخصيته الإنسانية انطلق به إلى مرحلة أخرى تعطيه الفرصة للحصول على الهدايات والإمكانات العلمية والمعرفية، التي يحتاجها في مسيرته الحياتية، ليضمن له الفوز

والنجاح والسعادة والرقي والفلاح، في الحياة الدنيا وفي الآخرة..

**3** ـ فجاء قوله: ﴿**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾ ليفتح له أبواب المعرفة، حيث أعطاه حق السؤال والبحث عن كل ما يحتاجه ويسعده، والحصول على ما يؤهله للمرحلة الثالثة والأخيرة التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**﴾ كما سنرى، فإن ما يتلقاه من معارف صحيحة، من مصادر المعرفة الحقيقية والصادقة هو الذي يؤهله لتلقي العطايا والهبات، والحصول على النعم، والوصول إلى الغايات، واستحقاق الألطاف والفيوضات الإلهية الغامرة.

**اللف والنشر المرتب:**

وقد جاءت هذه الآيات الثلاث في آخر هذه السورة المباركة: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**﴾.

بملاحظة ارتباطها بالآيات التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾ ـ جاءت ـ على طريقة اللف والنشر المرتبين. أي أن الآية الأولى من الثلاث الأخيرة، وهي قوله: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾ لها ارتباط وثيق بآية: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾.

والآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾ مرتبطة أيضاً ارتباطاً وثيقاً بثاني الآيات السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾.

مع ملاحظة أنه أيضاً قد عطف هذه الآيات الثلاث على سابقاتها بفاء التفريع أيضاً التي تفيد أن هذه الأوامر في هذه الآيات مترتبة، وناشئة عن تلك الحقائق التي أشير إليها في الآيات التي سبقتها.

**(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)!!:**

**وبالعودة إلى متابعة سياق الآيات نرى:**

**أولاً**: إنه تعالى تحدث عن السائل، أي سائل، صغيراً كان أو كبيراً، رجلاً أو امرأة، مسلماً أو غير مسلم، غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً.

**ثانياً**: إنه تعالى بعد أن ألمح إلى الهدايات التي منحها الله تعالى لرسوله، بمجرد خروجه إلى عالم الوجود، وأنه قد خرج مصحوباً بما يحتاجه منها، رتب على ذلك أمره تعالى لنبيه بأن يتقبل كل باحث عن المعرفة، ويريد أن يستفيد من نور العلم في التخطيط، والعمل والممارسة، وأن يصغي إليه.

**ثالثاً**: **إنه تعالى لم يقل لنبيه**: أما السائل فأجبه، أو فعلمه، بل نهاه فقط عن رده بجفاء، فقال: ﴿**فَلَا تَنْهَرْ**﴾..

**ولعل السبب في ذلك**: أنه يريد أن يكون التعليم إن كانت هناك ضرورة تقتضيه.. في أجواء طبيعية وراقية، وبأخلاقية عالية..

**رابعاً**: إنه تعالى لم يقل: فلا تنهره، بل قال: ﴿**فَلَا تَنْهَرْ**﴾، لأنه يريد أن يكون عدم الرد بجفاء وغلظة هو القاعدة في كل موقع، وفي كل حال، ولكل إنسان، ولو لم يكن سائلاً، ولا يريد أن يخص عدم الجفاء بالسائل دون سواه.

**خامساً**: إن رد السائل قد يكون له مبرر أحياناً، بأن يكون هو غير مؤهل للعلم بما يطلب علمه، أي أنه غير قادر على استيعاب الجواب، أو لأن المسؤول غير قادر على تفصيل الجواب له على النحو النافع له، لانشغاله عن جوابه بما هو أهم وأولى، أو لغير ذلك من أسباب.

فيمكن رده بلطف ورفق، مع إبداء العذر أو بدونه.

والمبغوض هو الرد بجفاء وخشونة وغلظة، لأنه يعبر عن سوء خلق، وسوء تقدير، وخشونة طبع، ولأنه تزهيد بالعلم والمعرفة، ومنع للمعروف، وشح لا يعذر به أحد، وإساءة وأذى لمن لا يستحق الإساءة، بل يستحق التقدير والتكريم، لأن النهر ـ لغةً ـ هو الرد بجفاء وخشونة.

# الفصل الثاني

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث)

## مهمة الرسول الأكرم ﷺ:

لقد قررت الآيات الأخيرة في سورة الضحى حقيقة مهمة الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» في سياق بناء المجتمعات الإنسانية والإيمانية: أن هذا البناء لا بد أن يقوم على ثلاث دعائم، هي:

**الأولى**: القيم الروحية والإنسانية والأخلاقية، التي يفترض في الإنسان أن يعتمدها وينطلق منها، وينتهي إليها في بناء شخصيته الإنسانية والإيمانية، وتكون هي المهيمنة على كل وجوده وعلاقاته، وكل حركته في مسيرته التكاملية، في بناء شخصيته كفرد، وكمجتمع، ولأجل ذلك انطلق الحديث من حقيقة: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ لكي يجسدها سلوكاً وممارسة في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾.

فقد جعل الإلتزام والتوازن الأخلاقي في التعامل مع اليتيم، والخضوع للقيم الإنسانية والشرعية في تعامله مع نفسه ومع غيره، بل مع كل ما ومن يحيط به، أو له به صلة أو رابطة، حتى مع الحيوان والنبات، ومع الحق والدين، ومع كل شيء.. وعليه أن لا يستصغر أي خلل أخلاقي مهما كان بنظره صغيراً وغير ذي أهمية، وأن يتخلص من الإستكبار والغرور والأنانية، وسائر مساوئ الأخلاق، وغير ذلك، مما قد يكون منشأ لكوارث ورزايا كبرى.

**الدعامة الثانية**: أن يكون على بصيرة من أمره في كل خطوة يخطوها، فيعتمد العلم والمعرفة وسائر الهدايات الإلهية أساساً ومنطلقاً لكل حركته، فلا يخبط خبط عشواء في ظلمات الجهالات والضلالات، بل يكون على هدى من ربه وعقله، وفطرته، وسائر أنواع الهدايات التي يسرها الله تعالى له، وأن يكون رائده هو البحث والتقصّي، وملاحقة العلم والعلماء، على قاعدة: أطلب العلم ولو في الصين[1]. ولأجل ذلك انطلق الحديث من

(1) مستدرك سفينة البحار ج6 ص437 وفيض القدير ج1 ص692 و 693 وكشف الخفاء ج1 ص138 وج2 ص44 والأنساب للسمعاني ج3 ص578 ومجمع البحرين ج6 ص274 والبحر الرائق ج4 ص21 وروضة الواعظين ص11 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج27 ص27 و (الإسلامية) ج18 ص14 ومشكاة الأنوار ص239 وغوالي اللآلي ج4 ص70 ومنية المريد ص103 وبحار الأنوار ج1 ص177 و 180 وج2 ص32 وج105 ص15 وشعب الإيمان ج2 ص254 والرحلة في طلب الحديث للبغدادي ص65 و 72 و 75 و 76 وجامع بيان العلم ج1 ص7 و 8 و 9 والجامع الصغير ج1 ص168 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج10 ص138 والكامل لابن عدي ج1 ص178 وج4 ص118 وتاريخ بغداد ج9 ص369 وميزان الاعتدال ج1 ص107 وج2 ص335 ولسان الميزان ج1 ص193 وج6 ص304 وتنزيه الشريعة للكناني ج1 ص258 وكشف الظنون ج1 ص51 والأنساب للسمعاني ج3

قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾، ليثمر على صعيد الممارسة والسلوك البحث عن المعرفة، والسؤال من أهل الذكر، الذين يجب عليهم بذل المعارف لطالبيها من خلال قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾.

**الدعامة الثالثة**: أن الغاية يجب أن تكون هي تحقيق حالة الغنى الروحي والنفسي، والمادي، والاكتفاء الذاتي في كل مجال، وتلبية الحاجات في كل شيء، فلا يحتاج أحداً سوى الله بعد هذا انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾، لكي ينتهي في مجال السلوك والممارسة قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**﴾، ليكون إظهار هذه النعمة، من أسباب إذكاء الرغبة فيها، والاندفاع إليها، بسلوك السبل نفسها.

وهذه هي حصيلة الأركان الثلاثة وثمرتها الغالية، فهي ثمرة القيم، وثمرة العمل بالهدايات الإلهية، فإن العطايا والهبات والنعم الإلهية تعطي بحضورها ووفورها، واستقطابها للمجتمعات السكينة والطمأنينة، والشعور العملي بالرضا والسعادة، والهناء.

وتزيدها اندفاعاً نحو طلب ما هو أسمى وأرقى، وتدعوها إلى مواصلة مسيرة الكدح إلى الله بتحصيل المزيد من الإمكانات والقدرات والكمالات، وتصونها عن استغلال المستغلين، وعبث العابثين، لتكون هذه الآيات المباركة الأولى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾ توطئة وتمهيداً ودليلاً كافياً، ومبرراً مقبولاً وطبيعياً ومعقولاً

---

ص578 وذكر أخبار إصبهان ج2 ص156.

لهذه الأوامر الثلاثة التي ترتبت عليها: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**﴾.

وهذه الدعامات الثلاث هي الأهم في بناء المجتمعات الإنسانية والإيمانية، وفي دوامها وبقائها على حالة من التنامي والتكامل والرقي ما دامت تنطلق من القيم الصحيحة وتهتدي بالهدايات الإلهية على أنواعها، ولا سيما في العلوم والمعارف.. لتكون حصيلة ذلك هي وفور النعم الإلهية، وشمولها لمختلف الفئات، وصيرورتها من الظواهر المألوفة والطبيعية، والشاملة. ويتجه الناس نحو القيام بواجب شكر المنعم على النحو اللائق والرصين.

**أهمية كاف الخطاب:**

**ويؤكد هذه المعاني**: أنه تعالى قد حرص في خطابه في هذه الآيات المباركات على أن يكون خطابه للمفرد الحاضر: ﴿**يَجِدْكَ**﴾، ﴿**وَوَجَدَكَ**﴾ ﴿**تَقْهَرْ**﴾، ﴿**تَنْهَرْ**﴾، ﴿**رَبِّكَ**﴾، ﴿**فَحَدِّث**﴾، ليدل بذلك على مطلوبية هذه الأمور منه، بما هو فرد وشخص، وبصورة حقيقية وفعلية، ليكون الأمر في مقام الأسوة والقدوة هو وظيفة الأفراد فرداً فرداً، ومستوعباً للجميع من دون أن يتخطى حتى الفرد الواحد في ضمن المجموع، فلا يرضى ولا يتسامح ولا يستثني أي فرد لا يلتزم بهذه المقررات، ولو في ضمن المجتمع كله، مهما بلغ من الكثرة. فالكل يجب أن يبني إنسانيته وأخلاقه وخصائصه، والجميع يجب أن يستفيد من الهدايات الإلهية، وأن يبذل

المعرفة والعلم للجميع.. والجميع يجب أن يظهر نعمة الله لتكون أمام أعين الناس، وبمرأى ومسمع منهم..

لكي تكون هذه المسيرة واضحة المعالم والسمات بجميع مراحلها، ويرى كل أحد محاسنها، وبركاتها، وآثارها، ويعيش في كنفها راضي البال، ناعم الحال. مصوناً من أي نقص أو اختلال، محفوظاً من المخاطر والمهالك في جميع الأحوال..

لكي لا تكون القيم تجارة، ولا الأخلاق متكلَّفةً ولا مستعارة، ولا على سبيل التشبه والتقليد، من دون أن يكون لها عمق روحي ولا أصالة ولا رسوخ في أعماق النفس والقلب والوجدان.

لأن رسوخها هذا هو الذي يجعل الإنسان يتذوقها، ويلتذ بها، ويمارسها بعفوية ورضى.. ويجعل الآخرين يطمئنون إليه، ويحنون إليه، ويحدبون عليه. ويحملهم على الرغبة بمواصلة التعامل والتواصل معه.

وإذا كانت الدوافع والمحركات أخلاقية، ومنها النوايا الصالحة أيضاً، ومن واقع الذات الإنسانية، ومن ميزاتها وخصائصها، فإن بالإمكان المراهنة والتعويل عليها، واللجوء إليها..

أما إذا كانت الأهواء، والنزوات، والانفعالات العشوائية هي المحرك، وهي المعتمد، فإن الاعتماد عليها اعتماد على سراب، واللجوء إليها لجوء إلى دار الخراب. وما تأتي به النزوات، تذهب به نزوات أخرى..

فإن الثبات هو الأساس الذي يقيم الناس عليه علاقاتهم، ويربطون به مصالحهم، ويعلقون عليه آمالهم. ولا يعلق أحد آماله، ولا يقيم تعامله مع

الطائر البارح، والهواء السارح.

والثبات هو الذي يهيئ المناخات لحركات الإصلاح، وللمعالجات الناجعة.

كما أن هذا الثبات المستند إلى الأخلاق والشيم، وإلى الخصائص الإنسانية، والقيم الأخلاقية الراسخة هو الأساس في التكافل والتواصل الاجتماعي الدائم والمستمر، والتعاون في كل مجال، وفي جميع الأحوال.. وهو الذي تعقد عليه الآمال، وهو الذي يبعد شبح الخيانة، والتغافل والتساهل، والاستغلال والتواكل.

وهو الذي يعول عليه في الصدق والوفاء، والالتزام بالعهود، وعدم تجاوز الحدود.

وكل ذلك يفسر لنا قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾، ثم قال: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾، فإنه يشير إلى ضرورة أن يكون ذلك عاماً وشاملاً. كما أنه يعطينا المعنى الشمولي لقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾.

وإذا كان رائد المسيرة، وقوامها، والمهيمن عليها هو الفهم للواقع، ودراسته دراسة واعية وعلمية ودقيقة، فإن هذه المعرفة، والعلم والتدبر، والتعقل هو حلال المشكلات، والملجأ في المعضلات، وهو الذي يهيئ أسباب القوة، ويمكن من اجتراح الحلول واختراع الوسائل، التي تمكن طلاب الغايات من تجاوز المراحل، واختصار المسافات، وتذليل العقبات..

وهذا العلم يحتاجه الفرد، وتحتاجه الجماعة، وتحتاجه الدولة، وسائر

القوى المؤثرة والفاعلة، في كل حال، وفي كل مجال.. بدأً من تعامل الإنسان مع نفسه في يقظته ونومه، وحله، وترحاله، ومأكله ومشربه، وملبسه، وفي تعامله مع الأم والأب والزوجة، والإبن والبنت، ومع القريب والبعيد، ومع البشر والشجر والحجر.. والحيوان، ومع المال، والكمال، والقوة والجمال، ومع الطبيعة والماء والهواء، ومع كل شيء، وفي التجارة والزراعة والسياسة والصناعة، والتربية والمدرسة.. فإن كل شيء يحتاج إلى معرفة وعلم، وإلى هدايات ودلالات، وإلى خبرة، وتجربة، وتدبر وتعقل.

ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾، ثم قال: ﴿**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**﴾، فإن هذا كله يجب أن تكون له صفة العموم والشمول لكي يحصل على النتائج العظيمة التي أشير إليها بقوله تعالى:

﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾ ثم: أمره أمراً عاماً وشاملاً فقال: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث**﴾.

**ما المراد بقوله: (فَحَدِّث)؟!**

ونعود إلى توضيح المراد بقوله: ﴿**فَحَدِّث**﴾، فهل المراد به لزوم ذكر نعمة الله تعالى للجليس والأنيس؟!

وإذا كان هذا هو المراد، فهل المقصود به الذكر على سبيل الإفتخار والتبجح؟! والعياذ بالله!! أو على سبيل الشكر للواهب، والتدبر في العواقب؟!

لا شك في أنه يجب تنزيه الله تعالى عن أن تكون المعاني الهزيلة أو المشينة من مقاصده، فإنه تعالى لا يأمر نبيه بالإفتخار والاستطالة على الاخرين بنعمةٍ

أعطاه إياها، فإن هذا ليس من شيم الأنبياء، ولا يأمر الله تعالى بما لا يليق.

كما أن التبجح مما يجل عنه مقام النبوة، ومما يريد الله تعالى تنزيه عباده عنه، فهل يأمر أنبياءه، وهم الأسوة والقدوة، بما لا يرضاه لعباده؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

**وقد يقال**: المقصود بالتحديث هو إظهار هذه النعم، ببذلها للناس، وتمكين المحتاجين إليها من الاستفادة منها، فإن الكثير من الناس قد يملكون أموالاً، ولكنهم يخفون تلك الأموال في الصناديق، والخزائن المقفلة، والمحروسة بالرجال، والمحمية بالسيوف والحراب..

ولعلهم يبالغون في إخفائها عن خلق الله، ولا يعترفون لهم حتى بوجودها، خشية أن يطلب أحد من الناس شيئاً منها، ليحفظ به خيط حياته، أو ليصون به ماء وجهه.

فهي أموال ميتة ومعطلة، لا يسمح لها بإنعاش الحياة في المجتمع الإنساني.

وقد كان لدى قارون من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، والعصبة هي الجماعة من العشرة إلى الأربعين، فكيف إذا كانوا من أولي القوة، ولكنه بالرغم من كل ما آتاه الله قد انتهى أمره إلى أن خسف الله به وبداره الأرض.

كما أنه تعالى يريد نعمة الجاه أيضاً أن يكون لها أثرها في حل مشكلات أهل الإيمان، وإصلاح أمورهم، وتسهيل عيشهم، وجلب جميع أنواع المنافع لهم، ودفع الأسواء عنهم.

ويريد من الخُلُق الكريم أن يسهم في إنتاج المعاملة الرضية والحميدة، واستثارة كل عناصر الخير في الناس، وإنعاشها في نفوسهم، وإصلاح الاختلالات الأخلاقية، وأن تكون هذه الأخلاق بلسماً للجراح، وراحة للنفوس، وأن تشيع الخير والسلام والسلامة بين أهل الإيمان، على قاعدة: كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم(1).

وهكذا يقال في نعمة العلم، الذي يزكوا ويزداد على الإنفاق.. فما بالك بسائر النعم، كنعمة العقل والجمال والقوة، وأي نعمة أخرى؟!

**(رَبِّكَ) لماذا؟!!:**

**واللافت هنا**: أنه تعالى هنا لم يتحدث عن بذل النعم والسخاء بها للآخرين، ولم يتحدث عن تحصيل المزيد منها، ولا عن السعي في أي شأن من شؤونها، بل تحدث عن إظهارها. كما أنه تعالى قد نسبها إلى نفسه.

**ولعل السبب في ذلك**: أن الله تعالى هو الذي يعطي المال للناس، ويمنحهم الجاه والعلم، والعقل، والخلق، والجمال ونعمة الدين، والشريعة، وكل ما في هذا الوجود..

---

(1) الكافي ج2 ص78 و 105 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج1 ص76 وج12 ص162 وج15 ص246 و (الإسلامية) ج1 ص56 وج8 ص513 وج11 ص194 ومستدرك الوسائل ج8 ص456 و 457 وج11 ص273 ومشكاة الأنوار ص96 و 300 وبحار الأنوار ج67 ص303 و 309 وج68 ص7 ومرآة العقول ج8 ص65 ومستدرك سفينة البحار ج10 ص283.

فالأنبياء والأوصياء والصلحاء، ومعلموا الأخلاق نِعَمٌ من الله علينا.. بل هم من أعظم نِعَمِ الله تعالى، ولأجل ذلك تمت نعمة الله بولاية علي «عليه السلام» يوم الغدير. فقد قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[1].

وبولاية علي «عليه السلام» أصبحنا إخواناً قال تعالى: ﴿**فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾[2]. وفي هذه الآية المباركة: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾. يشير بكلمة «رب» المضافة إلى كاف الخطاب، إلى أنه هو تعالى صاحب هذه النعمة، ومفيضها، وأنه تعالى يريد لك الخير، لأنه بصدد توسيع آفاقك، ومعونتك على بلوغ مقاصدك، ويريد تكاملك، وتربيتك وتنميتك بحكمة ومحبة، ولا يريد لك الركود، والخمود والسقوط والهمود!!

إنه يريد لنا أن نستفيد من النعم، وأن نحركها في حياتنا، وأن نوظفها في تحقيق غاياتنا، وأن تظهر علينا آثارها، وأن تنقلنا من حسن إلى أحسن. لأن الله تعالى منحنا إياها ليكون لها هذا الأثر، وهو الإسهام في تحقيق أهداف الله من الخلق. وهو التسامي والتنامي بالاستقامة على طريق الحق، وبالأخلاق والقيم، والمعاني الإنسانية، لا بنيل الشهوات، فإن الشهوات قد تكون سبباً في انحطاط الإنسان.

---

(1) الآية 3 من سورة المائدة.

(2) الآية 103 من سورة آل عمران.

وظهور النعم، وإظهارها بالحديث عنها ترغيب للناس بها، وتقريب لهم إليها، وهذا إسهام في إصلاح أحوال الناس، ومعونة لهم على الوصول إلى السعادات الكبرى التي وعدهم الله تعالى بها، وأعدها لهم، ويريد منهم أن يعدوا ويستعدوا لها..

كما أن التحدث بالنعم من مظاهر الشكر الذي يريح وجدان الإنسان، ويرضيه، ويجعله يعيش السكينة والطمأنينة..

**وعن سلمان الفارسي**: أنه كان يهيئ قوت سنته، فقيل له في ذلك، فقال: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت، وتفرغت للعبادة، وأيس منها الوسواس[1].

فرؤية النعم والحصول على هذه السكينة، من شأنه أن يحد من جشع الإنسان، ومن قلقه وخوفه، ويرغبه بشكر الله وحمده، والتقرب إليه، لأن شعوره بالعرفان وبالامتنان يدعوه إلى السعي لنيل المزيد من الرضا، والتحبب إلى الله، والابتعاد عن مواقع سخطه، ويبعده عن حالة الغفلة، والتلهي بشؤون الدنيا عن ذكره تعالى. ليكون باستمرار في موقع العبودية والطاعة، والشكر، والتلذذ بطاعته وبعبوديته.

كما أن رؤيته لكثرة النعم، وتنوعها ووفورها، يسهل عليه، ويسليه عن

---

(1) راجع: المعجم الكبير ج6 ص219 ومجمع الزوائد ج5 ص35 والعلل لأحمد بن حنبل ص402 وحلية الأولياء ج1 ص207 والإمامة وأهل البيت ج1 ص31.

فقدانه لبعض ما تهفو إليه نفسه، مما حظره الله تعالى عليه، وتدفعه إليه شهوته، ويشعره بالاستغناء عنه، ويقلل ذلك من شعوره بالانتقاص من سعادته في هذه الدنيا.

ويزيده ذلك أملاً بالله، وتوقعاً للمزيد، وإيماناً ويقيناً بعطائه، ويشعره بأن ما منع عنه لم يمنع عنه إلا لمصلحته، ويرى أن ما عوضه الله به خير مما فقده. ويبعده عن حالات اليأس والقنوط من رحمة الله الذي يجر إلى الكفر.

ولأجل ذلك يقول الله تعالى لعباده: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾[1].

ورؤية النعم تزيد الإنسان ثقة بالله، وتعطيه أملاً وطموحاً، وتوثباً، ورغبة في مراجعة حساباته ليعرف أسباب فقدانه لبعض ما يطمح إليه، فلعله يكتشف أنه لا مبرر لتلك الرغبة، أو يكتشف مواضع الخلل التي أوجبت حرمانه منها، فيعمل على إصلاحه..

وإذا كان الله تعالى قد جعل نبيه ووليه وجعل نفسه أيضاً من مصادر ووسائل غنى أهل الإيمان على قاعدة: ﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[2]، فلا بد أن يسعوا إلى الحصول على رضا الله وعلى رضى رسوله بطاعته، والمزيد من إظهار العبودية لله، والحرص على طاعة رسوله، وامتثال

(1) الآية 18 من سورة النمل.

(2) الآية 74 من سورة التوبة.

أوامره، ليصبح الله تعالى ورسوله أحب إليهم من كل شيء حتى من أنفسهم.

وإذا كان الوصي والولي هو الأب الآخر لهذه الأمة بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإن ذلك يدفعنا إلى الحرص على حفظ نعمة الولاية التي إذا فرطنا فيها نكون قد فرطنا بجميع ما جاءنا به الرسول، وأصبحنا على حد الكفر كما صرحت به الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

**كلمة الختام:**

وأخيراً.. فقد حان الوقت لإفساح المجال للقارئ الكريم لكي يتنفس الصعداء، وينعم بالراحة بعد رحلته الطويلة هذه، والتي قد عانى فيها معنا الكثير من المتاعب والمصاعب، فلربما يكون صدره قد ضاق، وصبره قد نفذ من سماع أقوالنا التي قد لا يروق له سماع كثير منها، لما يراه فيها من تكرار مملٍّ تارة، ومخل بالمقاصد الأخرى..

ولكننا نود أن يسعدنا بلفتة كريمة منه، بإتحافنا بمؤاخذاته، لنستفيد منها في التنقيح أو التصحيح حيث يكون هناك ضرورة لأي من هذين الخيارين، وسوف نكون له من الشاكرين..

ونأمل أن نتبع تفسير هذه السورة ـ سورة الضحى ـ بتفسير سورة الشرح

(1) الآية 74 من سورة التوبة.

أيضاً للارتباط الظاهر بينهما إن شاء الله تعالى.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

**17/ شعبان/ 1434هـ.ق 26/ 6/ 2013م.ش.**

**بيروت ـ لبنان**

# الفهرس


تقديم:..... 5

الفصل الأول: ممهدات.. قسم الله بمخلوقاته..... 11

بداية:..... 13

ما هو القسم؟!:..... 14

الله يقسم بمخلوقاته: ..... 15

القسم فقط بالذات الإلهية:..... 16

الحضور الدائم، والإلف، والعادة: ..... 17

ما بعوضة فما فوقها:..... 19

باقة رائعة: ..... 22

1ـ سورة هل أتى:..... 22

2ـ آية الولاية والتصديق بالخاتم:..... 23

3ـ الثناء على أمير المؤمنين ×:..... 24

4ـ الحض على إطعام المسكين:..... 25

5ـ ومن آياته: ..... 27

عود على بدء: لا أقسم، لماذا؟!:..... 33

الفصل الثاني: ﴿وَالضُّحَى..﴾..... 43

بداية: ..... 45
التوسع بالاحتمالات رقي وكمال: ..... 46
أهمية أوقات بعينها: ..... 48
جهد القاصر والعاجز: ..... 49
ما هو الضحى؟!: ..... 49
الضحى أهم الساعات: ..... 50
الفصل الثالث: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ..... 55
بداية: ..... 57
الليل والنهار مخلوقان: ..... 57
لليل منافع جليلة: ..... 60
الليل والنهار هما المثال الآخر: ..... 62
ما ورد في الدعاء: ..... 62
لو كان الليل سرمداً: ..... 67
الليل الساجي: ..... 69
للظلمة دور ووظائف: ..... 72
من حديث المفضل عن الصادق ×: ..... 73
عندما تهدأ الرياح: ..... 76
العبادة في الثلث الأخير: ..... 78
بين الطلوعين: ..... 79

الليل والعبادة: ..... 80
ما بعد طلوع الشمس: ..... 81
الغطاء و البعد عن الضوضاء: ..... 83
الفصل الرابع: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.. ..... 88
بداية: ..... 90
سبب نزول السورة: ..... 90
التناقض والإختلاف: ..... 97
أسانيد الروايات: ..... 98
سورة الضحى متى نزلت؟!: .....100
النبي.. وقول الشعر: .....103
خديجة أَجَلُّ شأناً: .....106
النبي ﷺ هو الذي شك في الوداع والقلى!!: .....107
جزع الرسول ﷺ وترك الأولى: .....108
تقليم الأظافر، وتنقية البراجم: .....110
اليهود في مكة: .....111
هل الشماتة هي مشكلة النبي ﷺ؟!: .....114
حمالة الحطب، لماذا؟: .....116
مقدار الإبطاء: .....118

القرار من الملائكة:.....119
لا يلعب الإمام بالكلاب:.....119
دثروني.. ورعدة الوحي!:.....120
التطابق المفقود:.....123
الفصل الخامس: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ مغزاها ومعناها..125
ظهر مما تقدم!!:.....127
الإبطاء: استدراج للاعتراف:.....128
أيكون الرب متناقضاً؟! حاشا!:.....133
لماذا البغض والقلى؟!:.....134
لماذا قال: ما ودعك؟!:.....135
تأويل غير مقبول:.....136
لم يقل: ما ودعك الله!!:.....136
لم يقل: وما قلاك:.....138
الفصل السادس: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾.....140
خطورة الشائعة:.....142
إسقاط هيبة الرسول ﷺ:.....143
من فمك أدينك:.....145
وللآخرة خير لك من الأولى:.....145
(لك) لماذا؟!.....148

الفصل السابع: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ .....153
بداية وتوطئة:.....155
لام القسم من جديد: .....155
(سوف) لماذا؟!: .....156
حد الرضا!! ما هو؟!: .....159
البشارة تضعف وتقوي: .....160
يعطيك ربك!!:.....161
النبي رازق وكافل في الحياة والممات:.....163
ما يرضي رسول الله ﷺ:.....168
التكليف كرامة إلهية:.....169
الفصل الثامن: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى **وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى** ﴾..171
توطئة.. وتمهيد:.....173
الاستفهام التقريري:.....173
﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾: .....175
نسبة الصفات والأفعال إلى الذات الإلهية:.....176
الوجدان والوجود: .....177
لماذا ﴿فَآوَى﴾؟!:.....180
من هو اليتيم؟!: .....183

لماذا لم يقل: فآواك؟!: .....184
أنواع الهدايات: .....191
لم يقل: فهداك: .....193
الفصل التاسع: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) .....196
﴿عَائِلًا﴾: .....198
كلام الراغب غير دقيق: .....199
لماذا ﴿فَأَغْنَى﴾؟!: .....200
توطئة وتمهيد للفصول التالية: .....202
آثار واقتضاءات: .....203
الفصل العاشر: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ .....204
للتذكير فقط: .....206
الأخلاق أساس ومنطلق: .....211
فلاتقهر لماذا؟!: .....213
أي يتيم؟! .....215
القهر!! لماذا؟!: .....216
الفصل الحادي عشر: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ .....218
للبيان والإيضاح: .....220
اللف والنشر المرتب: .....221
﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾!!: .....222

الفصل الثاني عشر: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾..... 219
مهمة الرسول الأكرم ﷺ:.....226
أهمية كاف الخطاب:.....229
ما المراد بقوله: ﴿فَحَدِّثْ﴾؟! .....232
﴿رَبِّكَ﴾ لماذا؟!!:.....234
كلمة الختام: .....238
الفهرس .....241
كتب مطبوعة للمؤلف.....249

**كتب مطبوعة للمؤلف**

1 ـ الآداب الطبية في الإسلام
2 ـ الإجتهاد والتقليد (جزء واحد)
3 ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..
4 ـ ابن عباس وأموال البصرة
5 ـ ابن عربي سنيّ متعصب
6 ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية
7ـ أحيـوا أمـرنا
8 ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم
9 ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل
10 ـ الإمام علي والنبي يوشع ʻ
11 ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»
12 ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي
13 ـ أهل البيت ^ في آية التطهير
14 ـ أين الإنجيل؟!
15 ـ بحث حول الشفاعة
16 ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية
17 ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم
18 ـ بنات النبي ʼ أم ربائبه؟!
19 ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان

20ـ تخطيط المدن في الإسلام

21ـ تفسير سورة ألم نشرح

22ـ تفسير سورة الضحى

23ـ تفسير سورة الفاتحة

24ـ تفسير سورة الكوثر

25ـ تفسير سورة الماعون

26ـ تفسير سورة الناس

27ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)

28ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات

29ـ الحاخام المهزوم

30ـ حديث الإفـك

31ـ حقائق هامة حول القرآن الكريم

32ـ حقوق الحيوان في الإسلام

33ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×

34ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×

35ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×

36ـ خسائر الحرب وتعويضاتها

37ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)

38ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)

39ـ دراسة في علامات الظهور

40ـ دليل المناسبات في الشعر
41ـ ربائب الرسول ’ «شبهات وردود»
42ـ رد الشمس لعلي ×
43ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)
44ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)
45ـ زينب ورقية في الشام!!
46ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي
47ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)
48ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية
49ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور
50ـ شبهات يهودي
51ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة
52ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)
53ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ’ (خمسة وثلاثون)
54ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد
55ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)
56ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!
57ـ ظلامة أبي طالب ×
58ـ ظلامة أم كلثوم
59ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني

60ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت
61ـ علي × والخوارج (جزءان)
62ـ الغدير والمعارضون
63ـ القول الصائب في إثبات الربائب
64ـ كربلاء فوق الشبهات
65ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×
66ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
67ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)
68ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
69ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (سبعة عشر جزءاً).
70ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»
71ـ المسجد الأقصى أين؟!
72ـ مقالات ودراسات
73 منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية
74ـ المواسم والمراسم
75ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام
76ـ موقف الإمام علي × في الحديبية
77ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)
78ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^
79ـ الولاية التشريعية

80ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة

81ـ الصحيح من سيرة الإمام الحسين × (قيد الإعداد)